رواية

قبرٌ بلا شاهد

عبد الرحمن العلي

25 / 9 2020

رواية : قبرٌ بلا شاهد

عبد الرحمن العلي 25/9/2020

دار نشر رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم

دار نشر رقمنة الكتاب العربي-

Stockholm

الكتاب: قبر بلا شاهد
المؤلف: عبدالرحمن علي
الطبعة الأولى: 2020
978-91-89273-15-3 ISBN:

الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية:2020-09-27-18-22

الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم

السويد، ڤاسترا جوتالند

هاتف: 0046790185518

البريد الإلكتروني: digitizethearabicbook@hotmail.com

جميع الحقوق محفوظة لدى دار رقمنة الكتاب العربي-ستوكهولم، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. والمؤلف هو المسؤول عن المحتوى.

Siryai - halab- manbig- awsajli

Azam400671@gmail.com

00963998400671

عبد الرحمن العلي من مواليد قرية

عوسج كبير ، منطقة منبج ، محافظة حلب ، سوريا .

المقدمة

لعلك عزيزي القارئ معجب بمجتمعك ، ما أن تتحاور مع الآخر وإذ بك تبدأ بمدحه ، تتغزل بعاداته وتلمع صفاته ، هو بنظرك المجتمع الطيب المثالي ، كريم مع الضيف، رحيم مع الضعيف ، قوي مقاوم للمعتدي ، رافض للرذيلة ، معادي للناقصة .

لا يا صديقي... للأسف مجتمعنا هذا نقيض هذه الصورة الوهمية التي تعيش بوجدانك ، تتغذى لأجل بقاءها على جهلك ونظرتك القاصرة التي لا تستطيع أو لا تريد رؤية الحقيقة .

السلوك... نعم السلوك

طبيعة الإنسان أنّه خُلِق مقلدا ، يقلد سلوك القدوة والقادة ، الصبية تقلد سلوك والدتها أكثر من سماع كلماتها .

الطفل يتعلم من سلوك والديه لا من كلماتهم ، وأنت عزيزي القارئ ستزني إن رأيت شيخ المسجد يفعل، ستفعل مثل ما يفعل حتى لو قرأ عليك في الصباح والمساء آيات وفتاوى التحريم.

ستكذب لو رأيت معلمك يكذب حتى لو قال لك : الكذب من أعظم الذنوب .

ستنافق إذا رأيت شيخ العشيرة بهيبته ووقاره ينافق .

وهكذا يا صديقي ، أصبح معظمنا كذابون ومنافقون وخانعون ، خائنون لقدس أقداسنا ، لديننا ووطننا وعرضنا وشرفنا ،ومنقادون للمحتل والغازي والعدو ، نفعل كل هذا مع وجود الناصح ، مع وجود النص الديني والأدبي ، نفعل هذا ونحن ننكر بكلامنا كل ما نأتي به ، ببساطة نحن نتحدث بالمعروف ونفعل المنكر، نفعل بالظلام ما نتجنبه بالنور ، نأمر بالمعروف وننسى أنفسنا ،اعتدنا على هذا وصار جزء من شخصيتنا، كثير من السلوكيات والعادات على خطئها نفعلها ونحذر الأخرين منها ،

صديقي : بهذه الرواية أقدم لك تصويرا لحادثة واحدة من بين آلاف الحوادث التي تجري بمجتمعنا ، حاولت بهذه الرواية تسليط الضوء على قضية قديمة حديثة ، بدأت مع الإنسان القديم وما زالت مستمرة و الأنسان وقد مشى بقدميه على القمر وأنزل مراكبه على كوكب المريخ .

(جريمة شرف) مفهوم بات موجودا وبقوة بين المفاهيم ، الكلّ يتكلم به دون معرفة حقيقة أبعاده وجوانبه وخفاياه ، كل عام آلاف من الجرائم في مختلف أنحاء العالم ، ناتجة عن خلل في العلاقة التي تربط الذكر بالأنثى ، خلل يؤدي لخطئ مرفوض من المجتمع ،فتكون النتيجة جريمة قتل ، لتميزيها عن غيرها ولإجاد حكم قضائي خاص بها ، بحثوا لها عن تسمية تريح العقل الجمعي للمجتمع ، فوجودا لها في عالمنا العربي والإسلامي اسم (جريمة شرف) ، في بلدان أخرى لها اسم أخر ، لم يستطع الدين أن يحدّ منها مع أنّه رافض له، وجامل المُشرع ذلك العقل الجمعي فأصدر القوانين والتشريعات المخففة

قبر بلا شاهد

الجزء الأول

عيد الفطر السعيد، ثلاثة شهور مضت على وفاة أبي محمود ، مات بعد معاناة طويلة مع المرض ، بيته الصغير اتسع لزوار العائلة الكُثر بهذا العيد ، هو العيد الأول بعد وفاة الرجل ،هو يحمل رمزية خاصة ، الأقارب هنا للمواساة ولتأكيد الترابط ، على الأسرة أن تستأنف حياتها الاعتيادية ، ها هم الأعمام والأخوال بجانبهم ،يقفون معهم في السراء ولن يتخلوا عنهم في الضراء ، سعيدة الأسرة بهذا الاهتمام .

دحام يتوسط الفناء ، يستظل بشجرة سرو كالرمح اندفعت بالسماء، يجلس على كرسي بجانبه شقيقه أسعد ، زوجته وزوجة أسعد وأمّ محمود وأمّ نادر وغيرهن افترشن حصيرة وتحلقن أمامه ، كديك وسط دجاجاته نفخ دخان نارجيلته ، صبايا يتحركنّ بمرح لخدمة ذلك الاجتماع الودي .

قالت أم نادر موجهة كلامها له : سبق وحدثتك بأمر يا أبا أسعد ، ليتك تتكلم به الأن .

- تقصدين أمر حميدة ونادر
- نعم .. ليتك تستثمر هذا الجمع الطيب وتوضح ما اتفقت وإياك عليه .
- سأفعل حالا ... طلباتك أوامر يا أم نادر .

رفع دحام من صوته وطلب من الجميع الإصغاء وقال : ليسمع الجميع ، حميدة فتاة جميلة ، شجرة حلوة ، وأهلها أحق الناس بها وبثمرها ، كما أنّ أباها -رحمه الله- أوصاني بها وأخوتها ، ولحرصي على أمنها وراحتها ، اخترت لها مكانا تهنأ به وتسعد ، ستكون حميدة لنادر ، وكلكم تعلمون أنّ نادر من أقرب الناس لنا ، أبو نادر هو ابن عمّك يا أم محمود ، هو بمثابة الخال لحميدة ، نادر لديه بيت ولا يعيش معه سوى والدته الطيبة أم نادر ، أتمنى من الجميع أن يفهم ما قلت ، سمعت أن أحدهم ينوي التقدم لخطبة حميدة ، لم يعد هذا مسموحا ، أكرر ، منذ اليوم حميدة لنادر ، ومن غير المسموح أن يتقدم أحد آخر لطلب يدها .

استبشرت الوجوه خيرا ، رفرف الفرح بالمكان ، ركضنّ الصبايا ومعهنّ حميدة لداخل المطبخ وزقزقة الفرح علَت من هناك .

منذ ذلك اليوم توطدت العلاقة أكثر مما هي عليه بين أم محمود وزوجة ابن عمها أم نادر ، زيارات شبه يومية متبادلة ، نادر لا يفوت فرصة إلا ويجيء لبيت حميدة وحميدة هي الأخرى وجدت التشجيع من الذين حولها للتردد على بيت زوج المستقبل وتقديم العون لوالدته .

حميدة لا تجد حرجا في دخولها وخروجها من بيت أم نادر بل وصل الأمر إلى أنها تنام هناك في حال غياب نادر ، لا تجد حرجا إذا شوهدت على سطح بيتهم وهي تنشر غسيلهم الذي غسلته بيديها ، أو شوهدت وهي تكنس أمام بابهم .

بعد أشهر من كلام دحام ، جاء نادر لبيت أبي محمود قال لحميدة : سأسافر ليومين ، عليك أن تنامي مع أمي لتأنس بك .

فعلت وبتشجيع من أمّها ما أمرها .

ربما يكون ذلك اليوم أكثر يوم أثّر بحياة حميدة لسنوات قادمة ، لقد مس براءتها وأخرجها من طفولتها ، بقيت تستعيد ذكراه على الدوام ، جلست يوما تتذكره

كالعادة ، وما أن وصلتُ لبيت ما كان يفترض بيت الزوج الموعودة به ، قمتُ بما يحتاجه المنزل من تنظيف وعناية ، طبختُ وغسلتُ الثياب ونظفتُ أدوات الطعام ، وصلتُ لفراشي وأنا في غاية الإنهاك والتعب ، وضعتُ رأسي على الوسادة ، كنت بين النوم والصحوة ، أحدهم طرق الباب طرقا خفيفا ، وقفتْ أم نادر ، تصنعتُ النوم ، أردت ترك مهمة فتح الباب لها ،انسلتْ أم نادر كاللص على رؤوس أصابعا ، فتحت الباب ، بعد لحظات عادتْ ، تأكدتْ من نومي ثم خرجتْ وكأن على رأسها الطير ، طال الوقت ولم ترجعْ لفراشها، أصابني القلق ، تسللتُ بهدوء ، صوتٌ بغرفة ابنها ،هل يعقل أنّه عاد فجأة ؟ ، اقتربتُ لأتأكد ، النافذة مكسورة ، ذهبتُ واسترقتُ النظر ، الأسفل من جسدها عارٍ، ظهرها باتجاهي ، تتكومُ فوق أحدهم ،تجلسُ كما الفارس فوق حصانه ، تتحرك صعودا وهبوطا مع تأوهات وكلام أقلّه

مفهوم وأكثره منخفض يذهب همسا بأذن ذلك الرجل والذي كان هو الأخر يهمهم وينفخ كبغل يأكلُ التبن ، عقلي يكاد يطير من رأسي .

من هذا الرجل ؟

تراجعت للخلف ،أحاول استعادة هدوئي ، أعطي لنفسي فرصة التفكير واستيعاب المفاجئة وامتصاص الصدمة ، أفكر بفكّ شيفرة الصوت الضعيف ،ذلك الذي يجيء من الرجل، صوت اختلط مع تأوهاتها ومع ضربات قلبي التي خرجت عن رتابتها .

من هذا الرجل ؟

لم أعرفه ، لا يظهر منه سوى قدمية وجزء من ساقيه المنسلين من تحت مؤخرتها ، مؤخرة كانت ترتخي ثم تنكمش ، تنتفخ وتفرغ ، تضغط بعنف على ما تحتها مثل عملية التنفس الاصطناعي الذي يقوم بها المنقذ للغريق .

وقفت قليلا أنظم أنفاسي ، عدّت ووضعت عيني على كسر النافذة ، أنتظر حركة منها تنزاح فيها فتكشف لي هوية ذلك الرجل ، تصل لأذني بعض من كلماتها ، كلمات مخجلة ، خادشه ، تتصادم مع حضورها المحترم الذي تبدو عليه حينما تجلس مع الناس .

نزلت أم نادر عن كرسي شبقها ، انكشف وجه ذلك الكرسي ، إنّه دحام ، ابن عم والدي .

خفت خوفا شديدا ، شعرت بقشعريرة تجتاح جسدي ، عدت مسرعة لفراشي، قلبي ينقبض بقوة ،أشهق وأزفر بسرعة كعداء أنهى لتوه سباقه .

لم أستطع النوم في تلك الليلة .

خرج دحام من المنزل وعادت أمّ نادر لفراشها ، في الصباح كانت بوضعها الطبيعي تحدثني وتمازحني وكأن شيئا لم يحدث .

لحظات أشعر برغبة لأن أسألها ، أقول لها ، لقد رأيتك ، لم يكن حلما ، كيف فعلتِ هذا ، كيف أقنعكَ ، كيف وكيف

لطالما جلستُ معهما، لم ألاحظ شيئا بينهما ، إنّها فعلا امرأة خطيرة.

احتجت لأيام حتى استعدت بعضا من هدوئي ، ذهب الخوف عني ليحل محله مشاعر لم استطع استيعابها وبقيت عصية على فهمي .

كثيرا ما كنت أخلو مع نفسي ، فاستسلم لخيالات وصور تدفع بي لأحلام اليقظة ، أهرب من فكرة أني أرغب بالالتصاق مع رجل ، أيّ رجل، فكرة اخافتني كثيرا .

بدأ جسدي يلح عليّ برغبات لا أعي أبعادها ولا أفهم ماهيتها ، كنت نائمة ، ايقظني حلم عذب لذيذ ، شعرت أني بحضن نادر ، كان بضغط على صدري ، يحيطني بجسده ، أنا مستسلمة لرجولته ، مستسلمة لعنفه وأرغب بالذوبان به .

دائما يجتمع عندي الخوف مع هذه المتعة التي صرت أبحث عنها فوجدتها أناملي بين طيات جسدي .

بعد أيام ، زارنا نادر ، كنت وخالد أخي الصغير في البيت ، لم يجد نادر صعوبة بإبعاد خالد ، طلب منه الذهاب لأحد المطاعم وإحضار الشطائر ، فرح خالد بهذه المهمة .

ما أن أطبق الباب خلفه مغادرا وإذ بنادر يلتصق بجسدي الذي كان راغبا ، فاستسلم لدفء انفاسه وبراعة أنامله .

فتكرر الأمر بأيام أخرى وبمناسبات عديدة .

احتجت لشهور حتى أصحو مما أنا فيه ، كان لصديقتي بدور الدور الأكبر بتغير طريقي والعودة بي حيث الأمان .

توقفت بمكاني وعاهدت نفسي أن يتغير حالي ، قويت عزيمتي واستطعت أن أصمد أمام اغواء نادر وافكاري التي نفرت منها .

بعد أيام دخلت حميدة ونادر بيت الأخير ، وما أن أغلق الباب حتى مال عليها وضغط بها على الجدار يريد تقبيلها ، تملصت منه بصعوبة فأحدثا بحركتهما جلبة نبهت الأمّ لوجودهما .

-هل جئت يا نادر ؟

-نعم أمي... وجلبت حميدة معي .. حسبت أنّك غائبة .

-نعم ذهبت لعند الجيران وعدّت قبل قليل .

خرجت الأم وتحدث معهما .

-أهلا حميدة... كيف حالك... كيف حال أمّك ؟

- الحمد لله أنا وأمي بخير ..قال لي نادر أنّ عملا كثيرا عندك اليوم، وقد بعثتي بطلبي .

-أنا... لا... نعم... نعم لا بأس

نظرت الأم لابنها نظرة تقول فيها : لست راضية على ما أقدمت عليه ، أنا لم أطلب منك جلب حميدة ولا أعمال كثيرة عندي ، عرفت أنه كذب عليها وفعل ما فعله لقصد الاختلاء بحميدة .

قالت الأم : حسنا، بما أنّ حميدة ضيفتنا اليوم ، اذهب واشتري لنا بعض الحوائج ، سنستثمر وجودها ونصنع (المحشي) ، ستنام عندنا الليلة .

فرح نادر بهذا الخبر ، ستنام حميدة في بيته ، أخذ النقود من والدته وقال : سأذهب للسوق واشتري لوازم المحشي وسأمرّ على دحام وأسعد وأعزمهما على العشاء .

- لا بأس ..افعل ما تشاء (هكذا ردّت الأم)

غاب لساعة وعاد ومعه ما أوصت به أمه ،في المساء حَضر دحام وأسعد والمساعد أول أبو جمعة ، دخلوا جميعا ودخل نادر خلفهم يحمل الأراجيل ، واحدة يحملها بيمينه والأخرى بيساره .

المائدة عامرة ، وحميدة هي النادل ، تسكب بالصحون وتأتي بالماء، تُحَضر المناديل وتجهز الشايّ وهكذا استمرت لساعة وآلة المضغ لم تشبع والكروش الكبيرة لم تمتلأ ، كان دحام يبتلع المحشية بلعا ويدفعها بكأس ماء ثم ينفخ نفخة تعبر عن استمتاعه بالطعام ،وأسعد يفعل مثله ، أبو جمعة أقلّ منهما شراهة ، نادر كابن آوى بين الضباع ، يناول هذا ويضحك لذك ، أم نادر لا يفرق منظرها عن منظر دحام وأسعد .

حميدة الخادمة الموكول لها بخدمة السادة ، أكلت القليل القليل بالمطبخ .

ما بعد المائدة هو أصعب مما قبلها وخلالها ، بيدر من الصحون والطناجر والكؤوس ينتظرها بالمطبخ ، شمّرت عن زنديها البيضاوين وانخرطت بمعركة مع الدهون والزيوت ، تعقد هدنة لدقائق لتقدم الشاي أو الشراب للسادة ثم تعود لتستأنف معركتها .

لا بأس، المهم النهاية ،المستقبل لي ، سأكون أنا سيدة ومالكة هذا البيت ، ما أفعله الأن تفعله الكثير من الفتيات ،لطالما اشتغلت ببيت أهلي ما اشتغله الأن وأكثر، هذا حال البنات في البيوت ،هؤلاء مثل أهلي، هم أقربائي و أهل زوجي المستقبلي.

هكذا كانت تحدث نفسها وهي منغمسة بمعركتها المطبخية .

استمر هذا لوقت ليس بالقصير ، تمّ الأمر وانتهت من أعمال المطبخ ، دخلت عليهم وبيدها صفيحة معدنية وُضِع عليها صحون العنب والتين .

الغرفة غارقة بدخان الأراجيل .

وجاءت كلمات المديح والشكر فاحمرّت وجنتاها خجلا .

قال دحام : حميدة ما في منها يا أم نادر .

أضاف أسعد : هي خير البنات والله ، أنت محظوظ يا نادر .

ردّت أم نار : بل أنا المحظوظة .. ستكون عندي كنّة جميلة ونشيطة ، ستكون لي عونا في آخر عمري .

قال أبو جمعة : أبحث عن عروس لولدي جمعة .

قال دحام : لا أعتقد يا أبا جمعة أنك تفكر بحميدة، هي لنادر .

قال أبو جمعة : لا أبدا... أعلم أنها له .. لكني أفكر بشقيقتها التي تصغرها ، ما كان أسمها ؟

ردّت حميدة بفرح : اسمها (هناء) .

كلماتهم أَنْست حميدة التعب ، بل شحنتها بطاقة جديدة لن تنضب بسهولة .

جلس دحام يكلمهم عن بطولاته ، وكيف أنّه عشق يوما شابة من حارته القديمة ، كانت تأتيه ببستان مجاور لبيته ، وعندما بدأت تتهرب منه وكررت عدم مجيئها لأكثر من مرّة ، ذهب للمسجد وفتح مكبّر الصوت ونادى عليها فسبب لها فضيحة ، يضحك دحام ويضحكون معه ويباركون له جُرأته .

قالت أم نادر : تجاوزت الستين من عمرك يا دحام وما زلت مولعا بالنساء ، لما لا تتزوج من امرأة أخرى ،عساها تهدأ من حركة عينيك الزائغتين .

قال دحام : لا شكّ أنّك تظلميني بقولك هذا ، ما أفعله أنا يفعله معظم الرجال ، من طبع الرجال يا أمّ نادر، أنّهم يحبون جميع النساء ، لا أحب هؤلاء الذين يدعون الإخلاص للزوجة ، أنا على يقين من كذبهم .

حميدة تراقب غنج أم نادر وحركة عينيها وطريقة كلامها مع دحام ، كل شيء مكشوف لحميدة .

تحدث نفسها :أنت داهية يا أمّ نادر، دحام خاتم بإصبعك ، إنّك قادرة على فرض احترامك عليهم جميعا ، نعم الرجال والنساء كلهم يعاملوك بمنتهى التقدير ، حتى أنا الذي رأيتك وأنت ترتكبين الرذيلة مع دحام ، حتى أنا لا أستطيع إلا أن أحترمك ، أنت امرأة قوية فعلا .

قال أسعد : والله يا أخي مشاكلك مع النساء كثيرة ولا تحصى .

ردّ دحام : تحدثني وكأنك حملٌ بريء ، ألا تذكر قصّتك مع النورية؟ طبعا تتذكرها ؟ .

اسمعوا جميعا قصّة هذا القط البريء، كان يعمل في لبنان ، ذهب لهناك لأكثر من عام ،ملأ جيبه بالليرات ،وحين عاد وبدلا من يأتي لبيته وزوجه ،ذهب بوجهه إلى بيوت النَّور ، أمضى ليلته كلّها بحضن (النَّورية وردة)، في الصباح لم يجد شيء

في جيبه ، فتعارك مع أهلها ، سمعنا بما جرى فهجمنا على خيام النّوَر وتدخلت الشرطة ،

أتذكر يا أسعد ما قالت لك النورية وردة ؟

- نعم أذكر... إنّها عاهرة والله ..هي جميلة لكّنها ماكرة ،قالت لمدير الناحية : نعم... أنا أخذت ما بجيبه ، لكنّه نام معي... سأعيد له كلّ المبلغ وأزيدُ عليه ، بشرط أن يقوم الأن ويجلب زوجته لتنام مع شقيقي ليلة كاملة ، كما فعلت أنا معه ، هجمت عليها وكدّت أكسر رأسها لقولها ما قالت.

قال دحام :بصراحة كان جوابها مقنعا وأفحمنا جميعا ، لم يجد رئيس المخفر بدّا إلا عقد صلح بينك وبينها ، على أن لا تعود وتطالبها بالمال ، وهكذا وضعت جهد وتعب سنة كاملة ، كلّه وضعته بمؤخرة وردة ، هل هذا كافي يا أسعد أم أسرد قصصك الأخرى .

قال أبو جمعة : عمّكم دحام نصاب أمريكي محترف .

ردّ دحام : لا .. لا يا أبا جمعة .. أنت ترمينا بحجارتك .

- لا .. لا أرميك ولا أي شيء... حجارتك رمت كلّ الناس ، هل تذكر قصتك مع الحاج سليمان ، قصّة الكنز .. لا تحاول إنكارها ، لم يمض على حدوثها زمن طويل .

- نعم أذكر .. لكن لا تفضحنا أمام الأولاد .

- أفضحك !... . المنطقة كلّها سمعت بقصّتك .. هل ستحكي أنت أم أحكي أنا .

- لا... سأتكلم أنا

قال دحام : كنّا نتردد وصاحب لي على الحاج سليمان في قرية الزينة ، الحاج سليمان يستمتع بحديثنا وأكثر ما كان يروق له من الحديث هو الحديث المتعلق بالمغامرات والكنوز والآثار ، اتفقت وصاحبي على خطّة ، نخدع بها الحاج سليمان فنحصل منه على بعض المال ، هو رجل ثري ولن يتأثر إذا ما خسر القليل من ليراته .

كان في طرف قرية(الزينة) تلّ أثري قديم ، كومة كبيرة من التراب الأسود ، فيها الكثير من قطع الفخار المكسّر ، وأهل القرية يعتقدون بوجود آثار وكنوز مدفونة فيه.

قلّنا للحاج : جاءنا ساحر من المغرب وأخبرنا بوجود الكثير من الذهبّ بالتلّ .

أبدا الحاج حماسا، فطلب مقابلة الساحر المزعوم ، فاتفقنا مع صاحب لنا- يعمل بالشعوذة - اتفقنا معه أن يقوم بتمثيل دور الساحر ، ألبسناها لباسا مختلفا وشرحنا له ما سيقول وما سيفعل ، قلنا للحاج سنقوم بتجربة لنعرف قوة هذا الساحر ، اشترينا صفائح حديدية ولوناها بلون ذهبي لمّاع ، وفي ليلة مقمرة ، خرجنا ومعنا الحاج سليمان .

صعد الساحر قمة التلّ ونحن جالسون نستمع لكلماته العجيبة ونرى حركاته الغريبة ، صاح الساحر : سبيكة تحت الحجر الكبير بجانبك يا حاج سليمان ، مدّ يده الحاج تحت الحجر، وجد صفيحة الحديد المطلية بلون الذهب والتي كنا وضعناها مسبقا كجزء من الخطّة ، أخرجها ، رفعها عاليا بيده ، أشعة القمر الغزيرة أشاعت لمعانا على صفيحة الحديد فبدت ذهبا خالصا ، اقتنع الحاج سليمان تماما .

قال الساحر: ما فعلناه اليوم ما هو إلا تجربة صغيرة ، سنعود بعد أيام ، الذهب كثير بهذا التلّ يا حاج ، تكتموا على ما رأيتم ، جهزوا أدواتهم ، ستحتاجون لصناديق ، هاتوا صندوقا واحدا كمرحة أولى ،استعدوا جيدا .

بدأ الحاج يسمع كلامنا وينفذ كل طلباتنا ، طلينا منه أن يشتري صندوقا كبيرا لوضع الذهب الكثير الذي سنستخرجه من التلّ ، وكبشا لذبحه وتقديمه قربانا وقلّنا له أن يحمل بجيبه مالا كثيرا للطوارئ ، فنفذ كلّ هذا .

بعد أيام ،حاملين فانوسا ، ذهبنا على موعدنا للتلّ ، جلسا بالجانب الغربي منه ، وذهب الساحر وصعد القمة وبدأ يتمتم بكلماته الغريبة ، وضعت أحد القطع الحديدية بالصندوق ، ناد الساحر على الحاج : مدّ يدك يا سليمان بالصندوق لقد وصلت أول سبيكة ، مدّ يده الحاج وأمسك بقطعة الحديد ، ففرح واستبشر ، فجأة ...صرخ الساحر صرخة مرعبة ، ركض صاحبي باتجاهه ، عاد وهو يقول : الدّم ينفجر من أصابع الساحر ، وهو يقول على الحاج قراءة سورة البقرة حتى يتوقف نزف الدمّ ، بدأ سليمان يقرأ القرآن ونحن نطلب منه أن يرفع صوته أكثر فأكثر ، ذهب صاحبي للساحر وعاد يخبرنا أنّ وضعه يسوء ولابد من نقله إلى المشفى ، أحضر صاحبي(التكتك) ووضع فيه الساحر الذي يصرخ ويتألم ،أخذت أنا ما بجيب الحاج من النقود لأدفع للمشفى ، قلت للحاج سليمان : عليك أن تبقى بمكانك هنا وتستمر بقراءة القرآن حتى صلاة الفجر وإلا سيموت هذا الرجل ونقع بمشكلة كبيرة .

ذهبنا وبقي الحاج بمكانه يقرأ بصوت عال القرآن على ضوء الفانوس .

أكملّنا سهرتنا ونحن نشوي لحم الكبش . كان المبلغ الذي حصلنا عليه من الحاج مبلغا وفيرا ، تقاسمناه نحن الثلاثة .

ضحكوا جميعا على ذكرياتهم البعيدة .

قالت أم نادر: الله يسترنا من آخرة هذا الضحك ، فتحت فمها متثائبة وقفت وتحركت بتثاقل باتجاه الغرفة وعينا دحام تتابعان حركة أردافها المهتزتان ، طلبت من حميدة اللحاق بها .

قالت حميدة: حسنا عمتي .. سأنهي بعض الأعمال بالمطبخ وألحق بك .

أنهت عملها بالمطبخ ، دخلت عليهم

قالت : هل تريدون مني شيئا قبل أن أدخل وأنام .

قال نادر : نعم... فقط أربعة من الكؤوس

- كؤوس !!
- نعم
- لماذا ؟

قال دحام : لا تكثري الأسئلة يا بنت... هاتي ما طلب منك دون نقاش .

جاءت بالكؤوس الأربعة ودخلت خلف أم نادر ، رمت فراش بجانبها ونزعت ثوبها الخارجي واندست تحت اللحاف ، متأففة من شخير أم نادر الذي يتصاعد أكثر فأكثر .

لم تستطع النوم... سحبت الباب واسترقت نظرة عليهم ، تريد معرفة ما فعلوه بالكؤوس، ربّاه... هم يسكرون .

خائفة مضطربة ، التصقت بأم نادر ، غطّت رأسها باللحاف لا تريد سماع أصواتهم .

جافاها النوم... وكيف تنام وهذه المطحنة بجانبها وهؤلاء السكارى بالقرب منها ، عبثا تغمض عيناها ، أفكار ووساوس ملأت صدرها الحائر، لا شيء واضح ، الأفكار كما الصّور ، تظهر فجأة ثم تغوص بالظلام ليأتي شيء جديد بدلا عنها .

مضى سنوات وأنا مسماة لنادر ، لم يفعلوا شيئا رسميا إلى الأن ، كلام ..فقط كلام ، ما دام دحام قال هذا ، فسينفذ ما قال ، لا أحد يستطيع منعه ، وتبقين يا حميدة تتأملين من هؤلاء السكارى ، هؤلاء يبدلون كلامهم ومواقفهم كتبديلهم الألبسة والأحذية ، وأنت بالنهاية لا شيء، لا قيمة لك ، هؤلاء لا يهمهم غير التباهي والتفاخر بالسفاسف ، يجاهرون بالذنوب ، لا ذمّة له ،هكذا كانت تناجي نفسها .

كانت تثق بكلام دحام ، لكن الامر تغير ، منذ أن رأت ذلك المشهد الغرامي الذي جمعه مع أم نادر ومن حينها وهي تشكّ بنوايا هذا الرجل ، باتت تتخيل أنّه استخدمها سلعة ، باعها لأم نادر ليشتري غرامها .

ما زالت تتذكر تلك الليلة، تتذكر صورها بالتفصيل ،حاولت نسيانها وتناسيها دون جدوة، صور ثابتة تلح على الظهور ولا تكترث لمحاولة الهروب منها او صدّها ، ما أن تنفرد بنفسها إلا وكانت تلك الحادثة جزء مما تفكر به .

تنظر لأم نادر وهي تنام بجانبها ، تجاوزت الخمسين من عمرها ،طويلة ، سمينة ، بيضاء ، تركها زوجها منذ أكثر من خمسة عشر عاما ، استغل دحام غيابه فارتبط معها بعلاقة .

تبعد حميدة تلك الصور عن تفكيرها ،تعود لتتذكر أنهم بمثابة أعمامها وأخوالها وهم أفضل لها من الغرباء ، ولن يجد نادر أجمل وأفضل منها ، وستنصلح الأمور مع الأيام .

تقدم الليل ... جلبة وحركة بالخارج ، لقد أنهوا سهرتهم ، فُتح باب البيت ثمّ أُغلِق ، لقد رحلوا .

بعد قليل... أحسّت أنّ باب الغرفة التي تنام بها يُفتَح ..حبست أنفاسها ،شعرت بالتوتر والقلق ، يتمدد نادر بجانبها ، ضربات قلبها تَتَسارع ، الدمّ يصعد لرأسها ،

يرفع اللحاف... يلتصق بها... يمدّ يده يضعها على بطنها

- ربّاه .. ماذا أفعل ؟

هل أوقظ الطاحونة التي تشخر بجانبي ؟

يقرب وجهه من وجهها ، رائحة العرق تبعث مزيدا من القرف ، تلتفت عليه وتهمس به .

- نادر ابتعد عني .
- لا تكوني مجنوني .
- أنت مجنون... أرجوك اذهب ..سأوقظ أمّك إن لم تذهب .
- لن أذهب.. ماذا جرى لك .. لم تكوني مثل ما أنت عليه الأن .. ألا تذكرين ما كنّا نفعل ... أنت خطيبتي وسنتزوج قريبا وهذا من حقي .
- نادر أنت سكران... ارحل عني أرجوك .
- لست سكرانا... لم أشرب سوى كأس واحدة .. أريد أن أكون صاحيا وأستمتع بجمالك الفتان ... قومي.. لنذهب للغرفة الأخرى... هيا قومي .
- لا لن أذهب ..
- لن أفعل أكثر مما فعلت بالمرّات الماضية .

يسحب يدها .. يريدها أن تتلمس جسده .. يسحبها لما تحت بطنه يحاول إثارتها .. يريد أن يشعرها بذكوريته ، يحاول إغواءها بفحولته.

أصرّت على رفضها .

- قال : حسنا ..ظلّي مكانك لن أفعل شيئا ... فقط سأنام بجانبك
- لن أسمح لك.

التصقت بأمه وأدارت ظهرها ووضعت جزء من اللحاف على رأسها ، منتظرة يأسه .

التصق بها وضمها بقوة ، شعرت بجزء عار من جسده يلامس ظهرها ، لحظات ونفخ نفخة قوية واسترخى وانفكت يداه عن خصرها ، قام وذهب لغرفته .

شعرت وكأن سحلية بصقت على ثوبها ، أحسّت بشيء حار ،مدّت يدها لظهرها ، سائل طري فيه سماكة بلل ثوبها .

جلست ، ضمّت رجليها لصدرها ، تقلص جسدها ، بكت بحرقة وألم ، والطاحونة ما زالت تشخر بجانبها ، صوت مؤذن المسجد ينادي لصلاة الصبح .

مرهقة متعبة والدموع تبلل خدّها ، قامت بثاقل ، ذهبت لغرفته ، للتأكد من نومه، ارتمى على بطنه بالفراش ، فتح أطرافه ، من الواضح أنّه غارق بنوم عميق ، عادت وتأكدت من نوم أمّه .

ما زالت النجوم بالسماء والتي بدأت تلبس الازرق بدلا من الأسود ، دخلت الحمام ، نزعت ذلك الثوب الذي لوثته السحلية ، ألقته بإناء وسكبت عليه الماء ، غسلته بسرعة ، تعرّت ، اغتسلت ، مدّت سجادة الصلاة وصلت ، بكت وهي ترفع يديها ، (رباه أنت ترى)

كررتها ، لم تقل غيرها ، (رباه أنت ترى).

حميدة من أسرة أبي محمود

(أسرة فقيرة)

. مات الأب وترك خلفه سبعة أطفال ...ثلاثة ذكور وأربعة إناث ، الابن الأكبر متزوج ويسكن بحارة أخرى ، الابن الثاني يعمل بليبيا وأخباره شبه مقطوعة ،والثالث هو خالد الذي يعمل مع بصراوي بالورشة

(حميدة) هي الأكبر بين البنات ...

لأبي محمود أولاد عمومة ، هما (دحام وأسعد) يزوران بيت ابن عمهم أبي محمود بين الحين والآخر. واستمرا مواظبين على عادتهما حتى بعد وفاته

ما أن يحضرا أو أحد منهما ، فإذ بإبريق الشايّ يرتمي في وسط فناء البيت ، يناول دحام علبة دخانه لزوجة ابن عمه أم محمود ، تأخذ منها سيجارة ... هي تفضل دخان اللفّ أكثر.

لاحقا التحق بهم (نادر) .. والده ابن عم أم محمود ، هاجر والده إلى الكويت ، تزوج بامرأة أخرى هناك ، يبعث له بين الحين والآخر بالقليل من المال ، يرافق رفاق السوء ، أُتِهم بسرقات ومشاكل أخرى .

سبق وعلمت عزيزي القارئ ، أنّ دحاما قرّر وبكل وقاحة وأمام الجميع أنّ حميدة لنادر ونادر لحميدة .

وطبعا كلام دحام في هذا المجتمع العشائري كان دستوراً وويلُ لمن يعترض.

وفي قانونه على حميدة ومنذ أن أتخذ قراره أن تقوم بكل ما يلزم لخدمة نادر ومنحه أكبر قدر من المتع .

نفذت حميدة بمرح كل ما كان يومئ لها .

سعيدة أم نادر ...وجدت من يخدمها ...فلم تبخل بكلمات المدح والتشجيع لحميدة .

لم ترى حميدة لؤم نادر ولا ميوعته بل كانت تراه شاباً وحيداً لأمّه، عنده بيت وأب يبعث له ما يحتاج.

تزوجت أختها التي تصغرها ...فلم تشعر بحرج فأمورها هي مؤمنة ولا قلق على المستقبل ،ثم تزوجت أختها الأخرى ، ما زالت مطمئنة والقلق بعيد عنها .

هكذا استمر حياتها مع هذا الخطيب المزعوم لسنوات

ما قرأته عزيزي القارئ عن زيارة حميدة لبيت خطيبها هذا ولأمه (أم نادر) هو حادثة واحدة من حوادث كثيرة عاشتها معه ... إذا ما تابعت القراءة ،ستعرف فصول حياة هذه الفتاة المسكينة ونهاية قصتها .

.....

الجزء الثاني

أواخر صيف العام (1988)

(كمال) يستعد ليكون طالبا في معهد إعداد المعلمين في المدينة ، صديقة (عادل) بدأ للعمل كمحامي متدرب بأحد مكاتب المحامين الكبار ، يقف الاثنان مع جمهرة من الناس هناك بطرف قرية (القادرية) على طريقها الرئيسي ، مع شروق الشمس وقبل أن تكمل دائرتها الحمراء البرتقالية ، زمور يشبه زمور الباخرة قادم من القرية المجاورة ، لحظات ووصل المارد .

(المارد) هو لقب باص (صالح السليمان) ، الركاب يعرفونه (بصالح المسعودة) ، وكنية المسعودة جاءت من اسم قريته (المسعودة)

مختار قرية (الزينة) والمساعد أول أو جمعة ويافعان آخران يجلسون جميعا على المقعد الرباعي المجاور للسائق والمسمى بمقعد (الجيم) .

يقف اليافعان بأمر من المختار ويتركان مكانهما لكمال وعادل .

(ناصر أبو جمعة)

شرطي برتبة مساعد أول ، يرتدي البدلة الرسمية ، تجاوز الخمسين من عمره، طويل و معتدل القامة ، تتقدمه كرش الهيبة ، وجهه مشرق وجبهته ناصعة البياض ، شعره خفيف دائم اللمعان، موفور الصحة والعافية، شارباه معكوفان كذيل العقرب ، يحبّ أن يطلق على الباص اسم (قطار الشرق السريع) ، يدخن الحمراء الطويل ويضع سيجارته بغليون رفيع يسمى (الأمزك)، يهمس به المختار فيطلق ضحكة مجلجلة .

وأنت عزيزي القارئ ستضحك مثل ما ضحك ناصر إذا ما همس بأذنك المختار ، كلمات المختار مثيرة للضحك ولافتة .

المختار

رجل سبعيني ، ختم المخترة بجيبة لا يفارقه أبدا ، سيجارة من دخان اللفّ ملتصقة بشكل دائم على شفته ،يتكلم ويحرك فمه والسيجارة ثابتة لا تقع ، صوته أجش ، جميع سكان القرى المجاورة يعرفونه ، ختمه موجود في كلّ بيت ، يختم لأهل قريته ولغيرهم، لا يقرأ ولا يكتب ولا يكترث بمحتوى الورقة التي يطبع ختمه عليها ، نصف أطفال القرى المحيطة بقريته سجلهم على قيد قريته ، صاحب نكتة وتاريخ حافل بمغامرات الحب والنساء ، يتواجد بالقرب من الدوائر الرسمية والمخفر ، عناصر المخفر يحبونه ويستمتعون بالحديث معه .

ذات مرّة جاءت سيارة الشرطة على قرية المختار ، نزل منها شرطيٌّ شاب جديد على المنطقة ولا يعرف المختار ، سأل عنه ، فأشاروا له إلى مجموعة من الرجال يجلسون على دوحة عشب .

الشرطي الشاب يحمل أوراقا بيده ويتكلم بتجهم وتظهر على ملامح وجهه الجدّية

-السلام عليكم

-وعليك السلام

-هل أنت المختار ؟

-نعم

-أسأل عن رجل بهذه القرية يدعى (شريف)

-يا ابن أخي... هذه القرية تخلو من الشرفاء... لا شريف عندنا .. هؤلاء الذين تراهم أمامك الأن يتمددون على العشب ، كلهم أولاد عاهرات لا شريف بينهم ، ضحك هؤلاء الرجال ولم يبدو عليهم أيّ مظهر من مظاهر الانزعاج .

اضطرب الشرطي الشاب وتكلم بانفعالية زائدة محتجا على كلام المختار ، رجع إلى السيارة وحكى لزملائه ما حدث .

ضحكوا جميعا ، كلهم يعرفون المختار وأجوبته ..

عدد من اليافعين لم يجدوا لهم مكانا في داخل الباص فصعدوا على ظهره ، وجدوا أمامهم سحارات عديدة مليئة بالعنب والتين ، كان صاحب الفواكه موجود على ظهر الباص مع بضاعته التي أخذها للمدينة بقصد بيعها هناك ، ألحَّ على الفتيه وطلب منهم أن يأكلوا من رزق الله ، حين نزلوا ناول كل واحد منهم عنقودا كبيرا من العنب شدّ السائق صالح حبلا تدلى من الأعلى ، فانطلق الزمور عاليا ، شخر الباص ودفع دخانا أسود خلفه وتحرك من مكانه .

صعدت الشمس بالسماء قليلا ، فملأ نورها الباص ، دخل الثنايا وأظهر الخفايا .

نظر المختار إلى أبي سلوم الذي كان يجلس خلف السائق على المقعد المسمى (الخاص)

فضح ضحكة ماكرة وهمس بأذن المساعد أول ناصر وأشار بإصبعه باتجاه أبي سلوم ، ارتفعت ضحكة المساعد أول المجلجلة وضرب على فخذه .

قال أبو سلوم : أضحكونا معكم يا مختار

قال المختار : خرب الله بيتك يا أبا سلوم ، ستفضحنا عند الحضر .

- لماذا افضحكم يا مختار
- انظر يا دب... إنك تلبس جلابيتك بالمقلوب

نظر أبو سلوم لجلابيته ، يتفقد نفسه باحثا عن جيوبه فلم يجدها ، ارتبك وخجل وصار يبحث عن حلّ يخلصه من حرجه ، وقف يريد انتزاع جلابيته .

قال المساعد أول أبو جمعة : انتظر يا أبا سلوم ، لا تفعل شيئا الأن ، عندما ينزل الركاب ويفرغ الباص افعل ما تريد فعله .

آلة التسجيل في الباص كانت تذيع القرآن بصوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد ، فجأة نزع المعاون (علوش) الشريط من المسجلة ، واستبدله بشريط آخر ،

صوت المعاون علوش يشبه كركرة الوز ورأسه مثل ثمرة أناناس استوائية .

على أنغام المطربة سميرة توفيق ، حديث فيه الكثير من المرح دار بين عادل والمختار والمساعد أول أبي جمعة، قرأ كمال العبارات المكتوبة على حديد الباص ، قرأها سابقا عشرات المرات .

(لا تخرج رأسك من النافذة ، الحسود لا يسود ، ابتعد عني تسلم مني ، لا تسرع يا بابا فالموت أسرع ، نرجو من الركاب عدم التأخير ، لا تنسى حمل هويتك ... و ..)

وجه المختار سؤالا لكمال .

- بأي حارة ستسكن هذا العام ؟

- استأجرت بالحارة (ن)

- الحارة (ن)... . أواه ... بالقرب منك يسكن (دحام)

ضحك المختار ضحكة تثير الأسئلة حينما ذكر (دحام) ، التفت إلى المساعد أبي جمعة ، وسأله .

- كيف هو دحام معك ؟ وأشار وكانه يمسك بكأس و بحركة ترسم حالة الشرب

ضحك أبو جمعة وقال : ابن عمنا هذا ابن حرام... منذ فترة حدثني رئيس مخفر المركز ، قال لي : جاءت الشرطة بأحد أقرباءك يا أبا جمعة ، يقول أنّ بينك وبينه عرق قرابة واسمه (دحام) ، لقد تشاجر مع صاحب بسطة بحجّة أنّ صاحب البسطة ، غمز زوجته التي كانت ترافقه... صار صاحب البسطة يترجى ويتملق دحاما ليعفوا عنه ، لم يرضى دحام إلا بعد أن أخذ منه الف ليرة ... همست المرأة المسكينة بأذني وقالت إنّ صاحب البسطة بريء ، لكنها لا تجرئ على التصريح أمام زوجها .

قال المختار : ذات مرّة جاءني وبيده ورقة يريد وضع الختم عليها ، أنت تعرف أني أختم للكثير من الناس دون أن أهتمّ بما داخل أوراقهم ، لكن أنا لا أطمئن لدحام ، فتحججت عليه وأخذت الورقة منه ، ودخلت مكتب أحد المحامين، كان المكتب بالقرب مني ، حذرني المحامي من ختم الورقة وقال: فيها خدعة .

قال أبو جمعة : ملفاته كثيرة ويحشر نفسه بالذي يعنيه والذي لا يعنيه .

قال المختار : لكنّه رجل .. نعم إنّه رجل بمعنى الكلمة ، يأخذ حقه من فم السبع ولا يهاب الموت .

قال المحامي عادل : يأخذ حقه... لا بأس... لكن أن يتعدى على حقوق الآخرين .. فهذا ليس من صفات الرجولة بشيء

قال أبو جمعة : إنّ دحاما (ملاحي) أصيل لا يقبل الهزيمة من أحد ، وله مواقف جيدة بالدفاع عن (البو ملاح)... أتذكرُ ذات مرّة أنّ أحدهم تجاوز وتكلم على شيخ عشيرتنا بالسوء... ذهب له دحام ومرغ أنفه بالتراب في وسط السوق .

قال المحامي : عمّاه ، إنّك تصور الأمر وكأن العشيرة في حالة صراع مع القبائل الأخرى ودحامكم هذا هو فارسها .

قال المختار : كلمة لا تنساها يا أستاذ عادل (البيت الخالي من الصايع... حقه ضائع .)

قال كمال : يا عم...الحقوق لا يحميها الصيّاع ولا الزعران ... والفشل يكون من نصيب العشيرة التي لا تعتمد على عقلائها في الذود عن حقوقها .

قال المختار : ما زلت صغيرا يا ولدي يا كمال...

امرأة تجادلت مع معاون الذي يشبه ثمرة الأناناس ، يريد منها ليرتين ونصف الليرة من أجل الأجرة وهي مصّرة على أن تدفع له ثلاث ليرات .

وقفت ورفعت من صوتها وقالت : يريد علوش أن يضحك عليّ ، يظنني لا أفهم ، دائما يفعلها ويأخذ منّا زيادة .

كركر علوش وزقزق وحاول إفهامها أنّ الليرتان والنصف هما أقلّ من الثلاث ليرات ، لكنه فشل ، فتدخل المحامي عادل ودفع عنها .

الجزء الثالث

الحارة (ن)

حارة بأطراف المدينة ، ما زالت شوارعها ترابية ، تحاذي بيوتها البساتين ، هي أقرب لحي ريفي من كونها حارة لأحد المدن ، تتقابل بيوتها -والتي يتجاوز عددها الثلاثين بيتا بقليل- حول شارع وحيد يمتد لحوالي مئتي متر، بيوت بطراز عربي ، منّها ما بنيت جدرانه بالحجر السوري المقطع قطعا مستطيلة أو مربعة ومنها ما غطته طينة اسمنتية رمادية ، بعض منها حوى على أكثر من طابق ، ما زال الطين يظهر هنا وهناك على بعض الجدران والحيطان دالا على أنّ الحارة ممتدة بتاريخ نشأتها إلى زمن الطين ، تجمع سكانها من القرى التابعة للمنطقة، معظمهم من عشيرة (البو ملاح)، قلّ ما يمرُّ الناس والسيارات من هناك ، فساد جوّ هادئ فسح المجال لنساء الحارة بالجلوس أمام البيوت، يهربنّ من ضيق البيوت مستمتعات

بوفرة هواء وشمس الشارع، يتجمعنّ أمام هذا البيت أو ذك ، يقمنّ بإعداد المؤنة أو طبخة اليوم ، يلعب أطفالهنَّ حولهنَّ .

على رأس الحارة وعند التصاقها بالشارع العام ،كان محل (الميكانيكي بصراوي)، يساعد بصراوي بالورشة الصبي خالد ابن المرحوم أبو محمود .

بالقرب من الورشة بيت أبي محمود ، هو بيت الصبي خالد ،لابد لمن يدخل الحارة أن يرى أمام ذلك البيت امرأة بأواخر العقد الخامس من عمرها ،تلبس لباس ريفي ، سمراء ، خطت وجهها بالوشم ، بيدها سيجارة وبالقرب منها إبريق الشاي الكبير ، إنها(أم محمود).

كمال وعادل والمختار والمساعد أول أبو جمعة ومعظم ركاب الباص وجزء كبير من سكان الحارة (ن) ينتمون لعشيرة واحدة ، هي عشيرة (البو ملّاح)

عشيرة تسكن القرى المجاورة للمدينة بالطرف الشمالي ، سكن بعض أبناؤها المدينة بالحارات الشمالية ومنها الحارة (ن)

بعد أيام جلب كمال أغراضه واستقر في بيته الجديد.

حوش عربي في آخر الحارة، من الطرف البعيد عن الشارع العام ، تملكه امرأه عجوز، فيه غرفتان ،كلّ عام يستأجره الطلاّب القادمون من الريف .

في هذا العام ،لم يأتي أحد ليسكن بالغرفة الثانية ..فأصبح البيت كله لكمال، يتشارك به مع دالية العنب التي تتوسط فناء البيت والتي هاجمتها أيام الخريف ، فاصفر الكثير من أوراقها وبدأت تتساقط على الأرضية الترابية ، تتراقص عليها بعض عصافير الدوري ،بنت أحد حمائم الدلم عشها فيها ، تكدس الكثير من الأغراض والأثاث القديم وقطع الخشب بطرف الفناء .

في غرفته ، سترى كتبه وآلة التسجيل خاصته وأشرطة كاسيت لمطربي البادية السورية والعراق ، هناك أيضا أشرطة لأم كلثوم وعبد الحليم حافظ وغيرهم من المطربين الذي تستسيغ أذواق أهل تلك المنطقة الاستماع إليهم .

مرور كمال بالأيام الأولى بالحارة كان لافتا ،الجميع ينظر له ، ما زال منظر البدلات الزرقاء السماوية وربطات العنق الحمراء الخاصة بطلاب المعاهد جديدا على هذه المدينة ، فمعهد إعداد المعلمين لم يمض على وجوده هنا سوى بضع سنوات ، كان كلّ ما دخل الحارة ، تقوم الصبايا والنساء الشابات ويدخلن بيوتهم ، وكأن دورية عسكرية تريد المرور من هنا لا يخرجن حتى يتأكدنّ أنّه دخل بيته وأغلق الباب خلفه ، هذا الأمر استمر لأسابيع، سبب له بعض الحرج .

بعد الظهيرة وهو عائد من الدوام ، مجموعة من النسوة مجتمعات أمام أحد البيوت ، حدث أمر منعهنّ من الهرب والدخول ، حدثت مشكلة ما ، إحداهنّ تولول وأخرى

تركض ، وثالثة تمسك بطفل وتضرب على ظهره ، هذا كان حالهن حين وصل لعندهن .

سأل : ما الأمر ؟

ردّت عليه : الطفل ابتلع قطعة سكر جافة وعصت بحلقه .

رمى كتبه وأخذ الطفل من حضن أمه وركض باتجاه (الميكانيكي بصراوي) ركب خلفه على الدراجة واتجها لمشفى المدينة ، لم يكن الأمر صعبا على المسعفين ، عالجوا الحالة سريعا ، فعاد بالطفل (يوسف) لحضن أمّه ، وجد أهل الحارة وقد اجتمعوا ينتظرون عودته، حالة من الفرح والرضى بدت على وجوه الجميع ، تبادل الحديث مع من كان هناك .

بعد هذه الحادثة ، تعرف على والدة الطفل ، هي ابنة خال أمه متزوجة بالحارة (ن) ، كذلك تصادق مع الميكانيكي **بصراوي** ، لم تعد النسوة يهربنّ حين مروره ، بل صار يلقي عليهن التحية، لقد عرفنّ أنّه ينتمي لعشيرتهنّ .

الطفل يوسف أصبح يناديه (الخال كمال) ، يتلاقاه بفرح كلّ ما مرّ بالحارة .

من الجيد أنّه تعرف على بصراوي وقريبته أم يوسف ، فكل ما شعر بالملل من كتبه ، كان يخرج من بيته ويتجه للورشة ، يمضي بعض الوقت هناك وأحيانا يزور أمّ يوسف في بيتها.

كان وبصراوي يجلسان على كراسي حديد صغيرة ، الإبريق الأسود أمامها ، مرّ شاب وألقى عليهما التحية ، ردّ بصراوي وعلى غير عادته التحية بفتور واضح ، وقف قليلا بالقرب من أمّ محمود ، تركها ودخل إلى البيت . طلب بصراوي من خالد الذهاب لأهله بحجة أن لا وجود للعمل الأن .خالد جلس عند أمه ولم يدخل البيت وهذا ما ضايق بصراوي

.قال بصراوي : كم أمقت ابن عشيرتك هذا المدعو (نادر)

-من هو نادر هذا ؟

-هذا الذي مرّ لتوه من هنا .

- لماذا تكرهه ؟

- أواه .. أسمه (نادر) هو قريب لبيت أبي محمود ، لولاه لكانت (حميدة) أخت خالد لي ، أنا متأكد أنّه معها الأن ولوحدهما ، وصلتني أخبار أنّ علاقته بها تجاوزت كلّ الحدود وكل هذا لأنّ دحاما خصصها له .

وهما يتحدثان وإذ بنادر وحميدة يخرجان سويا ، بيت نادر بحارة أخرى، مرّا بجانب الورشة فأحرقا أعصاب بصراوي .

- أنظر ما أوقحه...الأن سيأخذها إلى بيته وهناك لا يوجد سوى أمه إذا وجدت أصلا ، على الغالب سيتواجدان وحدهما في البيت ولك أن تتصور ما سيحدث بينهما .
- وما علاقتك أنت ؟
- يا رجل... تقول ما علاقتي... ألم أكرر لك ألف مرّة أني أحبها .

(حميدة)جميلة فعلا ، كانت تنظر لنادر وهو ينظر لها ، فتاة اقتربت من الخامسة و العشرين من عمرها ، قامتها تميل للطول وجسدها فيه امتلاء ، وجه أبيض بخدود كبيرة ، ضحكتها واضحة تكشف عن أسنان ببياض الثلج ، عينا بصراوي يلتهمان حركة أردافها وهي تتحرك بغنج ، بدت قوية ، جسمها وافر الصحة والنشاط عكس من كان يرافقها ، فقد بان نادر أقصر منها قامة ،في ظهره انحناء ، شفتاه تلونتا بالأزرق واحمرار في عينيه ، لون بشرته خليط بين الأصفر والأزرق ، عيناه جاحظتان ونظرته لئيمة ، مضطرب وكثير التلفت .

بعد أن غابت عن عينيه، تحدث بصراوي بحسرة وغضب عن(دحام) ، وأوضح أنه رجل شرير سكير ، لا يتوانى عن افتعال المشاكل وبايّ لحظة يريد ، معظم الناس تتحاشى لسانه السليط وطبعه المقيت ، يعتبر نفسه سيد العائلة والآمر الناهي بشأنها ، يساعده بسطوته شقيقه الأصغر أسعد والذي لا يقلّ عنه شرا وأذى .

بصراوي ، شاب كردي متزوج ، عنده ولد وبنت ، لكنّه يحبّ حميدة ، لقد خطبها من أهلها ولم يوافقوا ، ليس من سكان الحارة ، يقطن مع أهله بحارة مجاورة ، استأجر هذه الورشة لغايتين ،الأولى: للعمل والثانية: لأجل بقاءه بالقرب من محبوبته .

خرج كمال من المعهد ، مرّ بالسوق وامضى بعض الوقت عند صاحب له ، اشترى بعض اللوازم ، وصل الحارة متأخرا عن وقته ، شمس العصر أنارت بالأصفر أجزاء من الشارع، والجدران ألقت بظلالها على أجزاء أخرى ، أكثر أهل الحارة يجلسون أمام بيوتهم ، رجلان يجلسان بجانب أم محمود ، الأراجيل أمامهم وغيمة من الدخان فوق رؤوسهم وحميدة منكبة تصبّ الشايّ على طاولة صغيرة توسطت الجميع .

على الفور ومن النظرة الأولى ، أدرك كمال -ومن خلال ما سمعه من بصراوي – أدرك أنّهما (دحام وأسعد).

ألقى عليهما التحية ، ردّا بفتور وبصوت يكاد لا يُسمع .

سأل دحامٌ أم محمودَ : من هذا الشاب ؟... يبدو أنّه ليس من الحارة .

ردّت أم محمودٌ : إنّه كمال ... ابن عمكم هو موالحي مثلكم .. هو طالب من الريف ...إنه ابن المرحوم (سعيد الداعور) من القادرية .. استأجر بيت أم حسن الذي بآخر الحارة... شاب طيب ..خالد يحبه ويتحدث عنه كثيرا .

الجزء الرابع

كمال وكلّ ما ذهب أو عاد من دوامه ، نافذة بوسط الحارة تنفتح ..وهناك من هو خلفها يتعمد رفع صوت ألة التسجيل ،كانت الأغاني التي تأتي من تلك النافذة ساحرة... تبعث بنفسه مشاعر مختلفة ، رغبة بمعرفة من الذي يقف خلف النافذة ،يتباطأ بمشيته وصوت أم كلثوم تغني (القلب يعشق كل جميل) يخف الصوت كلما ابتعد عن ذلك البيت ،يصل داره يقف أمام الباب برهة ، يلتفت خلفة يبحث عن المفاتح ،ينظر إلى بيتها ،يراها تخرج للحظة ثم تختفي خلف الباب .

تكرر هذا الأمر عديد المرات، دخل كمال البيت وبدأ بإعداد طعامه ، وصله من القرية سطل لبن الغنم الطيب الذي يحبه ، طبخ البطاطا المغلية وخلطها بالبيض ، فرش السفرة وقطف القليل من عروش البقدونس و البصل الأخضر من حديقته منزله الصغيرة ، كلّ شيء جاهز ، لا ليس كلّ شيء جاهز ، لقد نسيّ اليوم شراء الخبز ، غضب ولم يعد له رغبة بالأكل ، ترك كل شيء مكانه ،سحب وسادة كانت بالقرب منه ، ألقى رأسه عليها وغطَّ بنوم عميق.

حلَّ المساء، أستيقظ على أصوات في فناء البيت

-كمال... أستاذ كمال .. هل أنت موجود ؟دخل بصراوي وخالد ، أشعلا النور ، فكشف النور عن كمال ممدد وسفرته بجانبه ،

ماذا بك يا رجل... هل أنت مريض ؟

- لا... لا... سأحكي لك بعد أن أتوضأ

ذهب كمال وتوضأ ثم عاد وهو يسوي قميصه وينشف وجهه .

- المائدة عامرة...يبدو أنّ حماتي تحبني .
- لا ليس كثيرا... كلّ هذا لا ينفع بغياب الخبز
- هل تقصد ؟
- نعم نسيت أن أشتري الخبز .

وقف خالد ولبس حذاءه وخرج

- إلى أين يا خالد ؟
- لحظة... سأعود إليكم
- أين ذهب ؟
- لا تقلق... سيعود ومعه الخبز... هذه عادته .. دائما يفعلها بالورشة... كلّ ما احتجنا هناك لشيء ، تجده هرع وعاد به من أهله ، خالد صبي طيب وخدوم
- نعم... أنت تُحسد عليه .

مع انتهاء كمال من صلاة المغرب عاد خالد ، لم يأت بالخبز فحسب ، بل جاء بصحن كبير امتلأ بورق العنب المحشي (اليبرق)

- ألم اقل لك يا كمال ؟
- نعم صدقت ..حقا خالد لا مثيل له... بارك الله بك يا خالد ما كان عليك ان تأتي باليبرق
- سألوني في البيت... لمن تريد الخبز .. اخبرتهم بالقصّة فأصروا على أن يبعثوا معي به .
- شكرا لك ولهم والله انتم جماعة طيبين .

اليوم الخميس ، ستعطل المدارس والمعاهد يوم الأحد القادم بمناسبة وطنية .

لقد قرروا أن يعطلوا السبت أيضا ، إذا هي عطلة من ثلاثة أيام ، كمال سيستثمر العطلة ويذهب للقرية .

قطع دوامه وحمل حقيبة سفر صغيرة ،لقد تأخر عن موعد انطلاق باص القرية ، فوقف على الطريق العام منتظرا بالقرب من ورشة بصراوي ، لأكثر من ساعة وهو يتحرك جيئة وذهابا ولا سيارة تمرُّ ، مرّ دحام من جانبه ، لم يلقي عليه التحية ، ذهب لبيت أبي محمود ، تذكر كمال كلام المختار وأبي جمعة وكلام بصراوي أيضا .

تكرر المنظر المعتاد ، جلس دحام على الكرسي بجانب أمّ محمود وبدأت حميدة حركتها النشيطة ، نصبت النرجيلة وأشعلت فحمتها وأحضرت الشايّ و... و..

بصراوي هو الأخر يحاول استغلال ظهورها ، يريد التمتع برؤيتها ، صار هو الأخر يتحرك ويسترق النظر ، لكنّه يخاف دحاما.

وأخيرا جاءت السيارة الصفراء والتي تشبه السلحفاة الكبيرة ، إنها موديل قديم ، ما زال بعض السائقين يستخدمها لنقل الركاب ، منشرة ببعض المناطق الشمال السوري .

السيارة ممتلئة ، لكنّ السائق لن يضيع راكبا وجده أمامه ، طلب من كمال حشر نفسه كيفما كان ، فتم الأمر والتصق بأحدهم وأطبق الباب بصعوبة .

للسائق رأس كبيرة حمراء ، شعيرات قليلة قصيرة تنتثر على المساحة الحمراء الكبيرة ، يلفُّ رقبته بقطعة قماش ، هي منديل يستخدمه لتنشيف العرق الذي يتصبب بغزارة على صلعته ، كان المطرب (أديب الدائخ)يغني بالعربية الفصحى، غناء خالّ من الموسيقا ، لكّنه غناء شجي جميل ، مواويل على الطريقة الحلبية ، تطرب النفس وتنثر البهجة .

سويعة ووصلت السيارة لمفرق القرية ، نزل كمال ، وقف للحظات على ساق واحدة، ساقه الأخرى كانت مخدرة تماما ، شمس الأصيل صبغت كلّ المنطقة بلون ذهبي يقترب من الأحمر.

رباه ما أجمل هذا المنظر ، هدوء تام ، الريح ساكنة ، يبدو أنّ مطرا قد هطل منذ أيام ، لا غبار يظهر إلا ذلك الغبار الذي يطلقه جرار منهمك بحراثة قطعة أرض بعيدة عن الطريق .

الجو جميل يشجع على المسير ، علّق حقيبته على كتفه ومشى ، مشى لمسافة ليست بالقصيرة ، نزل إلى كرم العنب خاصة أهله ، لم يجد إلا بضع عناقيد صغيرة من العنب الشامية البيضاء والحمراء ، نجت هذه الحبيبات من أيدي القاطفين ولم ترغب بها الدبابير ، لكنّها أتمّت نضجها فكان طعمها حلوٌ كالعسل .

لم تعد الشمس موجودة بالأفق حينما وصل القرية ، أبقت شيء من نورها الأحمر والذي بدأت تفتك به طلائع الظلام الأسود المتقدمة رويدا رويدا .

أمّ علي تغلق باب خمّ الدجاجات ، بيت أبو هشام منشغلين بعودة قطيع المواشي ، بعض الرجال دخلوا المسجد لأداء صلاة المغرب .

أمضى كمال العطلة ثم عاد للحارة ،حَمّلته والدته البيض واللبن ، قسم ما جاء به بين بيت ام يوسف وبيت أبي محمود ، تلقاه يوسف كالعادة راكضا واحتضنه بشوق واضح ، أخرج من جيبه قطعة نقدية وناولها للطفل ، ركض باتجاه دكان الحارة ، جلبت أم يوسف الكرسي ، جلس كمال أمام البيت وإبريق الشاي أمامه ، تبادل حديث متنوع مع أم يوسف .

سألها عن ذلك البيت الذي يأتي من نافذته صوت أغنية جميلة ، علا صوتها حينما جلس بالشارع .

ابتسمت أم يوسف ابتسامة فيها الكثير من الدلالات

قالت أم يوسف : أنه بيت الأستاذ حمدي

- نعم أعرف أنّه بيت الأستاذ حمدي ، لكن .. لكن

- انت تسأل عن شيء أخر .

- ماذا تقصدين ؟

- أقصد أنّك تسأل عن تلك التي تسكن بذلك البيت... إنها بدور .. اسم على مسمى وهي بدر البدور بكل ما تعنيه الكلمة .

- معقول !

- نعم يا كمال .. فتاة جميلة ومتعلمة وعاقلة .. هل حدث بينك وبينها أي شيء ؟

- لا .. لا أبدا

أكملت أم يوسف كلامها وقالت : تستطيع ان تقول لي أيّ شيء يحدث معك في هذه الحارة ، أنا اليوم بمثابة أختك الكبيرة .

عاد يوسف من الدكان رافعا هامته ويمشي بطريقة مختلفة .

قالت أم يوسف : إنه يقلدك بمشيتك يا كمال ...منذ رآك أول مرة وهو يفعل هذا... دائما يقول : سأمشي مثل مشية خالي كمال وسأكون مثله بالمستقبل .

كان ذلك اليوم باردا ،هواء محمل بالصقيع يعبث بالشارع الخالي إلا من ثلاثة أطفال صغار، صنعوا كرة من قماش ويلعبون بها ..خرج ملتفا بمعطفه ذاهبا للدوام في معهده .

وصل لوسط الحارة ..فتحت الباب ..رمت أمامه شريط كاسيت وتراجعت وأغلقت الباب خلفها .

بخوف وارتباك تلفت يمنة ويسرة ، كما السارق مدّ يده المرتجفة للشريط وحمله ودسه بسرعة بمعطفه ..

رجع مرتبكا مضطربا لبيته ..لن يذهب للدوام هذا اليوم ، دخل غرفته ،وضع الشريط بآلة التسجيل .

أم كلثوم تغني (يا فؤادي لا تسل أين الهوى)

ألقى بالكتب جانبا ..دخل فراشه وانطلق ممتطيا خياله التي ذهب به بعيدا بعيد حيث قريته، حلّق مع سرب الحمائم خاصته ، لابد أنّ السماء رمادية هناك مثل ماهي هنا الأن، يرى تلاميذ المدرسة يرددون الشعار وأمامهم معلمهم ، رعاة المواشي مع الأجراس وماعز تثغو ونعجة تثأج وكلب ينبح ، سلكوا الطرق حيث الجبال ، بعض من الأهالي يصعدون الشاحنة المتجهة للمدينة ، دخان مواقد الحطب تلويه الريح بقوة ، يتغلغل بين أغصان شجر التوت والتين التي اصفرت أوراقها وبدأت تتعرى منها، ما أجمل هذه الأغنية وما أعذب لحنها ، يشعر وكأنه يسمعها لأول مرة .

(يا فؤادي لا تسل أين الهوى .. صار صرحا من خيال فهوى)

ألف سؤال وسؤال يدور برأسه

ترى ما طبيعة هذه الفتاة ؟

ما شكلها ؟

كيف تتحدث ؟

أمضى معظم يومه هكذا ..ينتهي الشريط فيعيد تشغيله من جديد ..لم يخرج ..لم يطبخ طعامه .ولم يفعل أيّ شيء .

أحيانا يفتح باب البيت ، يمدّ رأسه علّه يلمحها ، ما زال الأطفال يلعبون ، هناك عجوز افترشت سجّادة صغيرة ، محتمية بجدار بيتها من الرياح الشمالية ، كانت تعالج شيئا بين يديها .

غابت شمس ذلك اليوم وهو على هذا الحال .

في المساء ... وبينما هو في فراشه ، هناك من يفتح باب البيت ويدخل .

فمزلاج الباب مربوط بشريط معدني.. يخرج هذا الشريط من ثقب إلى الخارج... يستطيع أيّ شخص أن يشدّ هذا الشريط فينفتح الباب .

أصوات الزملاء ، ،ثلاثة منهم جاءوا للاطمئنان عليه ،من حُسن حظه أنهم أحضروا عشاءهم معهم ..

أكلوا وشربوا وجاء دور لعبة الورق .

لم يركز كمال في اللعبة ..كان آداؤه ضعيفا... خسر بسهولة .

انتبه الرفاق لحاله ..حاولوا معرفة ما به لكنّه لم يستجب لاستفساراتهم الملحة .

.

أخبار بالحارة أن بنت أبي محمود (هناء) ستتزوج ، سيخطبها المساعد أول أبو جمعة لابنه جمعة.

وصدقت الأخبار ، وفد كبير من عشيرة (البو ملاح) اليوم في الحارة (ن)

المختار والمحامي عادل وكمال وآخرون حضروا الخطبة ، امتلأ البيت الصغير بالضيوف ،

قال أبو جمعة : يا معلم دحام ، نحن نطلب يد ابنتنا هناء لابننا جمعة، ونتمنى أن لا تردوا طلبنا .

قال دحام : تأخذها من دون طلب ، يمكنك الأن أن تجرها من شعرها وتذهب بها ، لقد اعطيناكم إذا الله عطاكم .

قال الشيخ عبد الله (إمام مسجد الحارة): لا يجوز هذا الكلام يا دحام ، هناك شرع ، لا يتمّ الزواج دون موافقة الشاب أو البنت .

قال دحام : لا تعقد الأمور يا شيخ ، من غير المعقول أن ترفض البنت ما نتفق عليه نحن .

قال الشيخ عبد الله : لن أناقشك بالأمر يا دحام ، أعرف ردودك وجدالاتك الفارغة ، ما زلت أتذكر كيف أتيتني ذات مرّة تطلب مني فتوة بالزواج من أرملة لم يمض على موت زوجها أقلّ من شهر واحد .

قال أبو جمعة : وكيف تصرفت حينها يا شيخ عبد الله ؟

قال الشيخ : ذهبت لعند زوجته (أم أسعد)، فقرصت له أذنه وجلس عاقلا .

ضحك العريس جمعة ضحكة لافتة وبدت بغير أوانها وقال: أنا أوافق عمي دحام بأن الشيوخ يعقدون الأمور أحيانا .

نظر إليه الشيخ عبد الله نظرة فيها شيء من الازدراء من دون أن يأتي بأي تعليق .

تبادل كمال وعادل النظرات مظهرين امتعاضا من ضحك وكلام العريس جمعة ،هما يعرفان غبائه وميوعته .

قال المختار : يا شيخ عبدالله ، نحن الموالحة نختلف عن غيرنا ، ولا بد أنّ الشرع راع لنا هذه الخصوصية .

قال الشيخ : تختلفون عن غيركم ؟ ..بماذا تختلفون لا أرى أن لك قرنا برأسك ... استغفر ربّك يا مختار، يا أخي اتركوا هذا الغرور ، أنّكم تبالغون بما تقومون به بالتفاخر والتباهي .. من يسمع كلامك يظنّ أنّكم شعب الله المختار .

ردّ المختار : أنت معذور بكلامك هذا يا شيخ ، فأنت لم تزوج موالحية ، سيبقى هذا الأمر حسرة في قلبك ليوم الدين .

ضحك الجميع من الجدل الذي جرى بين المختار والشيخ .

قال دحام : يا شيخ عبد لله ، قم للبنت واسألها ما تريد ، جلوسك هنا سيفضحنا .

سأل الشيخ العروس ، أبدت موافقتها ، فانطلقت الزغاريد بالحارة (ن)

خرج الوفدّ العريض بعد انتهاء المهمة

قال المحامي عادل : لن أغادر معكم للقرية ، سأبيت عند كمال .

فرح كمال بزيارة صديقه الغالي عادل ، فالمحامي عادل فنان تشكيلي ، واسع المعرفة على درجة عالية من الثقافة والجلوس معه متعة حقيقة .

تناولا العشاء معا ، اندس كمال بفراشه وكذلك فعل عادل بفراش الاحتياط المخصص للضيوف .

قال عادل : ما رأيك بهذا العرس يا كمال ؟

- من أيّ ناحية ؟

- يقولون أنّ العروس فتاة جميلة وذكية ، والعريس كما تعرفه .

- نعم .. للأسف... هكذا هي الدنيا يا صديقي .. لقد رأيت العروس هنا في الحارة .. هي حقا كما وصفتها تماما .

- يبدو أنّ أبا جمعة يبحث عن شيء ما من وراء هذا الزواج .

- إنّه يريد تعويض النفص الذي يعاني ابنه منه ، هو مثلا يرى أنّ عائلة دحام تتصف بالشراسة والجرأة ، وابنه ضعيف ، بكل بساطة ، يريد أحفادا مثل دحام

- (ضحك عادل) ، كلامك قريب من المنطق يا كمال ..طيب لو أنّ عائلة أبي محمود غنية وقوية ، هل كانوا سيوافقون على جمعة .

- لا... لن يوافقوا أبدا .

- عزيزي... المسألة أوسع من هناء وجمعة، هي حالة أزلية ، الغني والقوي يتحكم والفقير الضعيف يقبل .

بعد يومين ،حفل الحنّة للعروس هناء ، الحارة سعيدة والأطفال يلعبون بالشارع غير مكترثين لبرد أول أيام الشتاء.

دخل بصراوي لعند كمال والذي كان مندسا تحت لحاف الصوف وبيده كتاب ، توجه لإبريق الشاي وقام بغسله وملأه بالماء وأشعل النار تحته .

سأصنع الشاي ثم أجلس .

- أعتقد انك تحب شاي الورشات .
- نعم خصوصا المخلوط بشحم وزين السيارات ، الحارة يا صديقي مشغولة بالعرس وأهلي أيضا مدعوون للحفل ، لقد جاءوا لبيت أبي محمود يشاركونهم فرحتهم، بقيت وحدي بالبيت ، فتذكرتك ، جئت لأمضي معك بعض الوقت ، أعتقد أنّك سئمت الكتب الأن وتحتاج لمن يريحك منها .
- نعم .. معك حق .

أشياء كثيرة تحدث بها بصراوي، منذ فترة وهو يلاحق حميدة وهي تصده ، موقفها منه لا يريحه ، كثيرا ما حاول التحدث معها أو الالتقاء بها ،لكنها استمرت بالرفض .

هو يعتقد أنّها ستكون مرنة معه بعد زواج أختها الثالثة، هو سعيد بعرس الحارة و الذي تصلهم أصوات المحتفلين به .

في اليوم التالي ، استيقظ كمال ، كان مضطربا، سيحضر اليوم للحارة الكثير من أهل قريته ومن بينهم أهله ليزفوا العروس هناء ، لا شكّ أنّ ضيوف كثيرون سيدخلون بيته لساعة من الزمن ، قام بتنظيف الغرفة وتفقد المنزل بشكل عام ، ذهب السوق واشترى طعاما وأشياء أخرى .

بعد صلاة الظهر ، جاءت سيارات كثيرة وملأت شارع الحارة ، ونزل منها المئات من الناس ، وقف الشباب على الجانبين كأنهم حرس شرف ، وتبخترت الصبايا بثيابهن المزركشة ذوات الألوان الزاهية ، لم يخرج بعض الأطفال من السيارات وجزء منهم رفض القوانين التي تطلب منه البقاء فنزل للشارع باحثا عن دكان هنا أو مطعم هناك .

وكما توقع كمال

امتلأ بيته بالضيوف ، شباب وصبايا ونساء ورجال ، الكثيرون دخلوا لبيت ابن قريتهم ، أحبوا المائدة التي أعدّها لهم ، فروج وبيض ومعلبات و...

من الجيد أن العروس لم تكن جاهزة ، فمنح هذا وقتا ليجلس كمال مع الأحبة والأقارب والأصدقاء .

شقيقته وابنة عمه وابنة خاله انشغلنّ بمعالجة المنزل ، حاول عبثا افهامهن أن لا حاجة للتنظيف أو الترتيب وأنّه قام هو مسبقا بذلك ، لم يكترثن بكلامه ، إحداهن تناولت الصحون وبدأت بغسلها وأخرى أمسكت بمكنسة وصارت تكنس الفناء وثالثة انشغلت بالأغراض المتناثرة هنا وهناك .

ضحك ومزاح ولعب وجوّ مفعم بالسعادة والهناء ، نادى المنادى ، هيّا إلى السيارات ، دخلت العروس سيارتها وأصبحت جاهزة ، أغلق كمال بيته وركب معهم ، لقد قرر حضور عرس جمعة .

زفة كبيرة ، تجاوز عدد السيارات بها الأربعين سيارة ، سيارة شيخ العشيرة تتقدم الجميع ، أيدي الصبايا من النوافذ تلوح بالأوشحة ، أطفال يخرجون جزء من أبدانهم ، ويلوحون أيضا بأيديهم ، بعض الشباب يركبون دراجات نارية ، لأول مرّة سيارة تحمل كامرة فيديو كبيرة تقوم بتصوير الزفّة ، تتسابق السيارات ويتنافس السائقون ، تحدث مشكلة ، تُحلُّ بسرعة ويعاودوا المسير مخلفين خلفهم غيمة من الغبار .

وصلوا القرية ، سيكون عرسا كبيرا، فالمساعد أول أبو جمعة رجل معروف وهو أحد أبناء (البو ملاح) المهمين .

كان طعام الوليمة جاهزا ، لأول مرّة أيضا سيتغير شكل طعام وليمة العرس ، (اللحم بالعجين) ، طعام الولائم والأعراس المعروف بالمنطقة هو (اللحم المسلوق المخلوط بالرز أو البرغل) . أبو جمعة ابتدع فكرة جديدة .

البعض استحسن الفكرة وآخرون لم ترق لهم ، هناك من انتقد وهناك من أيّد .

خيمتان كبيرات نصبتا بجانب ساحة واسعة ، اصطف الرجال جالسين بصفوف منتظمة والشباب يتحركون لخدمتهم ، هذا يحمل الخضار وآخر يمدّ سفرة وثالث بيده ماء ورابع يوزع الأطباق .

الشيخ حازم لم يجلس ، بقيّ واقفا يرحب بالقادم ويوجه الشباب ، الجميع هنا خاضع لأمره ينتظر إشارة منه .

سأله أبو جمعة : كيف ترى الأمر يا شيخ .

قال : إن شاء الله يكون خيرا ، لكن يا أبا جمعة ، ما اعتدناه هو أفضل مما هو جديد ، لا يعجبني ما تخترعونه من عادات ، لا تحاول إقناعي أن هذا اللحم بالعجين هو أفضل من (الكراديش) ، ولم تكتفي بهذا فحسب ، ستأتي بمطرب وآلات موسيقيا ،لست مرتاحا لكل هذا .

قال أبو جمعة : لا تقلق يا شيخ ، هذا زمن وذك زمن ولكلّ أوان عادات وتقاليد تناسبه ، أُنظر للشباب ، إنهم سعداء بما نفعله لهم .

عند العروس تجمعت النسوة لمشاهدة العروس ، إحداهنّ همست : إنها قصيرة وعيناها صغيرتان .

ردّت أخرى : يبدو أنّها مغرورة ، وتظن نفسها ابنة مدن ، ألا تعرف أنّها من الموالحة ؟ .

قالت واحدة : بل هي جميلة جدا ولا ينقصها شيء ، وهذا العريس الأهطل لا يستحقها .

- أختها التي تكبرها أجمل منها ، لما لم يختاروها بيت أبي جمعة ؟ .

- هي مخطوبة لنادر ابن أم نادر ، منذ أكثر من أربع سنوات وهي مسماة باسمه .

- نادر... صاحب العينين الجاحظتين ؟

- نعم هو بذاته .

- بنات أم محمود لا حظّ لهنّ ، مع أنهنّ جميلات ، يتزوجنّ رجال لا يملكون المؤهلات ، هذه الدنيا ليست عادلة .

- هناك طائر بالسماء يكرر مقولته باستمرار (الزين للشين والشين للزين) ومرّات قليلة يخطئ ويقول : الزين للزين والشين للشين .

- من أكبر الظلم يا خالة ، أن تبحث الأسرة عن عروس جيدة لابنها التعيس .

- إذا تكلمنا عن الظلم والمظالم لن ينتهي كلامنا ولو بقينا العمر كله ونحن نتكلم .

- إنّ للكون ربّا ، خلقه وهو حيّ ويرى ويدري ويعرف ما يفعل ، لا يجب أن نُكثر من الكلام بمسألة العدل والظلم .

عند المساء بدأ الحفل ، هناك مطربان للغناء ومجموعة من النوريات للرقص .

لبست الراقصات لباسا شافا ضيقنا يبرز المفاتن، هاج الشباب وماجوا ، وأكثروا من التحيات واغدقوا على المطرب والراقصات بالمال .

النساء على أسطح الابنية المجاورة ، الأطفال يتراكضون حول حلقة الكراسي .

ينزل كثير من الشباب للدبكة ، وهنا يبرز بعض المميزين ، وتجدهم يروحون جيئة وذهابا في الساحة ، يذهب أحدهم للمغني ويهمس بأذنه ، فتنطلق تحية لشباب أمن الدولة أو للرئيس وأحيانا لأمين الحلقة الحزبية ، هناك من يحيّ أخوه المسافر بليبيا أو ابن خالته الذي يخدم بالجيش .

فجأة ينادي أحدهم : أوقفوا الموسيقا ، أطفئوا مكبرات الصوت ، المسجد يؤذن لصلاة العشاء .

تصمت الحفلة ويؤمن الجمهور لمدّة دقائق ، ثم يفعل الشيطان الخدمة من جديد ويعود الجميع للوضع الذي سبق الآذان .

انتهى الحفل ، وعادت حميدة للحارة (ن) دون أختها هناء .

أغلقت باب الغرفة وبكت حظها ، جلست تتذكر سنوات من العلاقة مع هذا الوغد نادر .

الجزء الخامس

بعد يومين جاء نادر ودعاها للذهاب معه لبيته ، وكالعادة قال لها : أنّ أمه بعثت به لها ، لا رغبة لها بالذهاب معه ، حاولت الاعتذار ،تدخلت أم محمود وحثتها على الذهاب .

لا خيار آخر عندها ، مشت معه ، ما زال بعض الأمل يملأ صدرها ، كلّ من حولها موافق على ما تقوم به ولا أحد منهم قلق بشأن علاقتها بنادر ، ولابد أنهم جميعا سيقفون معها لإتمام هذا الأمر ولا شكّ أن النهاية آنئذ ستكونك الزواج .

لم يكذب نادر هذه المرّة ، لقد وجدت والدته بالبيت فعلا

، أكدت لها أنّها طلبتها .

أعمال منزلية اعتادت على القيام بها .

دقائق وإذ بأم نادر تغادر منزلها ، تركتها وحدها معه ، النار الأن بالقرب من الهشيم ، لا حاجز يمنع ولا حائط يحمي ولا عصا تردع ، وبدأ الضبع يلاعب الغزال .

أخذها للغرفة وأغلق الباب خلفه ، وبدأ يتملق تمنعها ويترجى رفضها ، يقبل الحذاء ، يذرف دمعا ويضطرب شوقا ، يحلف ويقسم بكل مقدس أنّه يحبها ومخلص لها ولن يتركها وسيعمل على الزواج بها ، تسلل الضعف رويدا رويدا لها ، لم يترك لها فرصة لالتقاط أنفاسها ، فبادرها بالقبلات ، غزت أصابعه خصلات شعرها وأبعدت الوشاح الذي يغطيه ، ثم اتجهت كجيش غازي لصدرها ، بل زادت من زحفها لتهبط بين ثنايا الجسد ، تمسح كلّ ارتفاع وتهوي بكلّ انخفاض ، شفتاه تأكلان شفتاها ، ونفسه الحار يسري بأذانها .

مضى وقت حتى استيقظت مما هي فيه من نشوة ، وجدت نفسها نصف عارية بجانبه، يدخن سيجارته ، يبتسم لها بمكر .

- ماذا فعلت ؟

- لا شيء .. لا شيء أبدا... كلّ ما هنالك أننا عشنا دقائق حبّ .. لا يذهب عقلك لبعيد .. لست مجنونا لأفعل ما خطر ببالك .. جسدكِ عندك وستعرفين هذا بنفسك .

- ما فعلناه حرام يا نادر .

- إنّ الله غفور رحيم... ولا تنسي أنّ بيني وبيني رابط ،

- أيّ رابط هذا الذي تتحدث عنه ؟... لا شيء رسمي بيني وبينك ..مجرد كلام من عمي دحام وتسميه رابط .

- حميدة... لا تكبري الموضوع... الأمر بسيط ويحدث كثيرا .. قبلة أو قبلتين... هذا كلّ شيء .

عادت مضطربة وحائرة لبيتها

مشاعر كثيرة متضاربة تدور برأسها ، تسأل وتتساءل وكلّ ما سألت أكثر ازدادت حيرتها أكثر فأكثر ، أواه .. كيف سمحت له أن يكشف جسدك ؟

لماذا ضَعُت أمام قبلاته ولماذا لم تنتبهي ليديه وهنّ يتوغلان بثنايا جسدك ؟

ألم تعاهدي نفسك على الصمود ؟

انزعجت من نفسها

حالة من الشرود عاشتها لأيام ،ما كادت تنسى الذي حصل لها ، عادت وجمعت أشلاء شخصيتها وعاهدت نفسها من جديد ، لن أضعف مجددا ، لن استسلم .

لم يمض وقت طويل وإذ به يَحضُر لبيتها ، أمّ محمود مع الجارات خارج المنزل ، دخل البيت وكأنه بيته ، هكذا هي قوانين دحام .

كانت وحدها بالبيت ، يحدثها ، يترجاها ، تارة يعتذر وتارة أخرى يعاود المحاولة ، تبعها إلى المطبخ ، أمسك بها من الخلف ، دفعته عنها ، وعاد وكرر المحاولة ، لم تَضعُف له ، تمنعت ودافعت ، تراجع وفتح سحاب بنطلونه ، وأخرج .. نعم أخرج منه... ، وأمسك به يهزه بيده ويصرخ بها ويقول : أنظري هذا لك... هذا كلّه لك ، لم تنفذ ما أراد منها وأحاطت رأسها بذراعيها وأسندت وجهها للجدار ، هجم عليها ولطم وجهها وهو يتلفظ بألفاظ نابية مقززة .

غاب لأيام ثم عاد من جديد ، عاد معتذرا متأسفا يحمل هدية بيده ، قبلت اعتذاره بشرط أن لا يعود ويفعل ما فعله .

كرر زيارته لأكثر من مرّة مظهرا بعض الخلق الطيب .

الثلج يتساقط بالمدينة ،وهو في السوق شاهد نادر أم محمود هناك ، عرف أنّ البيت خالّ إلا من حميدة ، جاء متخفيا عن ورشة بصراوي وخالد ، طرق الباب ففتحت له .

عاد لعادته يتملق ويترجى وهي تعاند ، هذه المرّة لم يسيطر على انفعاله فضربها بقسوة ، تركت لطمته أثرا في وجهها، ازرق ما حول عينها ، ظهر جرح صغير بشفتها السفلى .

بعد ظهر ذلك اليوم، ازدادت غزارة الثلج على المدينة ،عاد كمال من الدوام والنافذة مغلقة .

مستسلم لهذا الجوّ الذي يلح على العزلة ..صنع طعامه واندس بفراشه ..

لا مدفأة في غرفته ، هناك أزمة وقود بالبلد ، الدفء الوحيد كان صوت أم كلثوم وهي (تغني أنت فين والحب فين)

بين الحين والآخر يمدّ رأسه إلى الشارع ، يريد أن يلمح ما يخرجه من مللـه .

الثلج يزداد شيئا فشيئا وملامح الشارع مالت إلى البياض ،حلّ ليل ذلك اليوم وما زال هطول الثلج على نفس المنوال .

ليس لديه رغبة بالنوم ،

انتصف الليل ، ما زال الثلج ينهمر، المكان كلّه غطاه البياض ،حركة على باب الحوش ،أحدهم يفتح الباب ويدخل ،يمدّ رأسه من الغرفة فيرى

قادم ملتحف بفروة ، ملثم بكوفية ،ارتعد مما رأى

من يدخل عليه في ليلة مثلجة وبساعة متأخرة ؟

تحفز وشعر أن عليه الاستعداد لأمر خطير ،الشخص يتقدم نحوه ،التفت باحثا عن شيء قد يحتاجه ليدافع به عن نفسه إذا لزم الأمر ، صوت نسائي يأتي من هذا الشخص .

- هذا أنا ..أفسح لي لأدخل

تراجع للخلف بحركة غير إرادية ..

وقف هذا الشخص على باب الغرفة ..أزاح اللثام وألقى الفروة

ربّاه ما هذا ..إنها فتاة

- ماذا بك ؟ ...أنا صاحبة الشريط

- نعم ..لكن ...لكن ..كيف ... أنت بدور ؟

- وتعرف اسمي إذا ؟

- نعم... لقد سألت عنك

- سألت عني ؟

- نعم... .سأحكي لك لاحقا... . تفضلي

قالت له : أشعر بالبرد

- سأشعل المدفأة .

- أسف فعلا ..لا يوجد وقود بها .

- لا بأس ..أشعل الغاز الرحال .. لا تقل لي أن لا غاز أيضا .

- لا أبدا ..يوجد غاز

- حبذا لو وضعت إبريق الشاي عليه.

بحركة فيها الكثير من الارتباك ..اشعل الغاز وملأ ابريق الشاي .

لحظات من الصمت سادت سرعان ما بددتها بضحكتها ،محاولة بثّ المزيد من الشجاعة بشخصه وإخراجه من هول المفاجأة .

مدّت يدها وسحبت آلة التسجيل لعندها ،أخرجت شريطا من جيبها ووضعته بالمسجة ،خرج صوت يغني أغنية فيها عاطفة وحزن .

بدت هادئة وهي تتكلم .

- اسمع يا ظريف الطول ..هذا الاسم الذي اخترته لك (ظريف الطول)، ما رأيك به ؟

بصراحة أنت تعجبني ..نعم تعجبني ..منذ وصولك لهذه الحارة وأنا مشغولة بك ..صرت أعرف مواعيد مرورك من جانب بيتنا ...فأهرع حينها إلى النافذة لأنظر إلى هذا الجميل المتأنق ..تبتهج النفس ويرتاح البال ..أردت أن تشعر بوجودي ..فكنت أرفع صوت الأغاني ..أضحك وأفرح حينما أراك تتلفت خلفك وألف سؤال يدور برأسك .

لابد أنّك تخيلت أنني مراهقة تشعر بالملل وهي ببيت أهلها المغلق ..فأرادت أن تلعب وتخفف عن عزلتها ..

ربما تخليتي عصفورة ضاق عليها القفص فرغبت أن يسمع الطير المهاجر تغريدها .

لا يا ظريف الطول ..لست مائعة ولا أنا من الباحثات عن التسلية ...وأنا ابنة عيلة كريمة وأعرف حدودي وأتصرف بإرادتي ..

جرّب وآت بحركة غير لائقة وسترى الردّ.

كانت تتكلم وهي تضع يديها على إبريق الشاي فتستمد منّه الدفء

يا ظريف الطول ...اسمي (بدور)...أنا متعلمة ..أخذت الثانوية في العام الماضي وأدرس بكلية الآداب بجامعة حلب . قسم اللغة العربية ، لا أذهب للجامعة إلا بفترة الامتحان .

أنزلت الإبريق ..

وقفت وخطت بعض الخطوات فأتت بكأسين فارغين كانا بخزانة بالقرب من الباب ..

كانت فرصة له لينظر قدّها المائل للطول والامتلاء .

تبسمت وهي تجلس

قالت : الأقداح نظيفة جدا ، جالت بنظرها أرجاء الغرفة .

- كما توقعتك تماما ..أنت إنسان منظم ..ثيابك معلقة بمكانها الصحيح ..فراشك مغطى بشرشف نظيف ..كتبك مرتبة .

سكبت الشايّ وناولته كأسه .

كمال ... جاء دورك بالحديث ..

في الحقيقة ...لا أعرف ما أقول ..فبقدر سعادتي بزيارتك بقدر ما أنا قلق وخائف ...مشاعر متعاكسة متضاربة تتزاحم في صدري وأسئلة عديدة في رأسي ..

- دعني أهون عليك ما أنت فيه ..لابد أنّ أكثر أمر يوترك هو خوفك من أن أهلي قد يكتشفوا بأيّ لحظة غيابي .

- نعم ..أنا فعلا أفكر بهذا الأن .

- لا عليك ..لديّ خمسة أخوة ..قسم منهم متزوج ولا يسكن معنا وآخرون مسافرون ..أما أختاي فهنّ متزوجتان أيضا، أسكن مع أبي وأمي وهما يغطّان الآن في نوم عميق ..أما الشارع فهو كما تراه ، يغطيه الثلج وتلعب به الريح الباردة ولن تجد به لا إنس ولا جان .

يرتشف الشايّ وينظر إلى وجه أبيض يلفه وشاح أسود مرصع بحبيبات لماعة من الخرز .

عيون سود كحيلة تشع منها لمعة ذكاء وفطنة .

وهما على هذا الحال وإذا بدربكة بالخارج وصوت إناء قد وقع من عال .

شهقت وكأن عقرب لسعتها ،نظر إليها فلمح خوفا حقيقيا في وجهها .

وقفا ..تحركت لتكون خلفه ..أحس بيدها تلامس كتفه .

بلحظة شعر بأنه بات مسؤولا عنها وأنها تطلب حمايته ..يجب أن يتصرف .

تقدّم وأمسك بسكين الطبخ وفتح الباب وهي خلفه .

حاملا سكينه ،فتح باب الغرفة

خطا إلى الخارج فتفاجأ بكلب يشمّ بذلك الإناء الذي أوقعه ،يبدو أنّ بدورا وحين دخلت فناء البيت نسيت إغلاق الباب خلفها ،فوجدها هذا الكلب فرصة للدخول والبحث عن بقايا الطعام .

خرج الكلب حينما رآهما .

عادا إلى الغرفة ،وقفا ينظران بوجهي بعضهما .

انفجرا ضحكا على ما جرى .

للضحك فعل سحري ،هدأت النفوس أكثر ،زالت بعض الحواجز ..أُثير جوّ من المرح .

جلس كمال وحدثها عن حياته ..عن أهله عن القرية ..عن حيرته بتلك التي تقف خلف النافذة .

قالت له : نهضت يوما على صلاة الفجر ، فتحت النافذة ، شاهدتك متوجها للمسجد ، تكرر هذا غير مرّة ، يبدو أنّك مواظب على صلاة الصبح ، هذا الأمر أسعدني، قد لا أستطيع المجيء إلى هنا مرّة أخرى ، وكي نبقى على تواصل ، سأقترح عليك التالي ، عندما تخرج فجرا للصلاة يوم الثلاثاء ، ستجد رسالة بجذع شجرة الكينا التي هي أمام بيتنا ، الرسالة ستكون بثقب يشبه عش الطير هو في أعلى الجذع من الجهة الغربية ، أعود وأكرر كلّ فجر ثلاثاء ستجد رسالة بهذا المكان والذي سيكون بمثابة صندوق بريد لنا نحن الاثنان ، أكتب الردّ وضعه بنفس المكان ، لا تنسى كلّ يوم ثلاثاء .

تناولت كتاب يحتوي على قِصة كانت بجانب ألة التسجيل ..إنها بعنوان (الوسادة الخالية) لإحسان عبد القدوس .

قالت : سآخذها هدية منك

قال لها : عندي قصص أخرى، يمكنك أن تأخذيها جميعا

- لا ..أريد هذه فقط ..لقد سمعت أنّها قصّة جميلة

أخرجت من جيبها شريط كاسيت ومنديلا مزركشا يفوح منه عطر نسائي .

- خذ... وإيّاك ثم إيّاك أن تستمع إليه الأن ، أريدك أن تنام الأن .. لا شكّ أن هذه السهرة أتعبتك .

سكتا عن الكلام ،نظرا بوجهي بعضيهما مليا مليا .

قال لها :سأوصلك لبيتك

- لا داع لهذا ،جئت وحدي وسأذهب وحدي ،عندما أصل سأشعل الضوء الخارجي كي تعرف أنّي وصلت غرفتي .

مضت وهو واقف أمام بيته ،

يراقب خيالا أسود يصدر منه صوت أقدامها وهي تضغط على الثلج ،لحظات وإذا بضوء بيت أهلها قد اشتعل ،لقد اطمأن على وصولها بأمان .

عاد إلى غرفته، أخذ يتأمل الشريط والمنديل ويشمُّ تلك الرائحة السحرية ، اندس بفراشه يراجع ما جرى له .

ليلة عجيبة غريبة، هو يستعيد كلّ كلمة قالتها وكلّ حركة صدرت منها ، يستذكر ضحكتها وصوتها ورائحتها ،يريد تسجيل كل شيء ،سيخزنه بصندوق ذكرياته .

في ذلك اليوم الثلجي ،عادت أم محمود من السوق وهي ترتجف بردا ، لم تنتبه لحميدة التي فتحت لها الباب

في صباح اليوم التالي ..لا حظت وضع جديدا تعيشه ابنتها، إنها شارة ، مضطربة .

- ما بك... أراك صامتة على غير عادتك .

- لا شيء يا أمي .. لا شيء

- لا .. من الواضح أن هناك أمر حصل بغيابي ، تكلمي يا حميدة

- قلت لك لم يحدث شيء .

- تعالي... اقتربي مني ... أريني وجهك .. تَلَوّن ما حول عينك بالأزرق.. لقد تعرضت للضرب .. قولي لي ما حدث ؟

بكت حميدة ، بكت بحرقة وألم ، والأم صامتة ، استمر هذا لوقت ليس بالقصير .

تكلمت أم محمود وقالت : لابد أنّه نادر... هو من فعل هذ .

- اسمعي أمي... لم أعد قادرة على الاستمرار معه ، كلّ شيء بات واضحا ، هو غير راغب بالزواج ، لا هو لا وأهله ، سنوات يا أمي ونحن نراوح بنفس المكان ، هذا يكفي

- سأكلم عمّك دحام .. نعم سأكلمه .. من الواجب عليه وضع النقاط على الحروف .

- عمي دحام... أواه يا أمي .. عمي دحام هو من خرب بيتي ، هو الذي دمرني وأصلني لهذه الحالة .

- لا بأس .. لابأس .. سأكلمه ونرى ما سيفعل .

بعثت أم محمود خالدا ينادي عماه دحام وأسعد .

في المساء حضر العمان .

- بعثتي في طلبنا يا أم محمود .

- نعم... هناك مشكلة بخصوص حميدة ونادر ، كنت اليوم في السوق ، حضر نادر هنا ، لم يكن في البيت غير حميدة ، يبدو أنّه قلل أدبه معها فصدّته ، فقام بضربها مسببا لها أذا في وجهها .

- هذا لا يجوز .. حميدة .. يا حميدة

- حميدة .. تعالي... عمّك يريد رؤيتك .

دحام يتفقد وجه حميدة ويتمم (بسيطة... بسيطة .. لا يبدو أنّه أمر كبير)

يفعل أسعد ما فعل دحام .

قال دحام : الأمر بسيط يا أم محمود... سأوبخه حين أراه .. ما كان عليك أن تبعثي بطلبنا لأجل هذا

قالت حميدة : عمّاه عندي كلام .. وأخشى غضبك .

- قولي يا حميدة .. أنا أسمعك

- بصراحة يا عم .. لا أعتقد أنني قادرة على الاستمرار مع نادر، والافضل أن نعمل على إنهاء ما بيننا .

- ماذا تقولين يا بنت .. لا شكّ أنّ جنونا أصاب عقلك ...هذا الوضع سيستمر .. ولن أقبل النقاش بهذا الموضوع .

- لكنّه يتصرف معي بطريقة غير لائقة ، أخجل أن أقول لك ما يفعله بي .

- لا أريد أن أعرف ما يقوم به ، ولن أسمع منك أيّ شيء ، معظم الشباب يفعلون ما فعله ، وبالنهاية سيكون زوجك .

- عمّاه... عمّاه... اسمعني أرجوك اسمعني .

- لا لن أسمع شيئا

- عمّاه .. علاقتي معه انتهت .

- ماذا تقولين ؟

- أقول .. لن أقبل أيّ علاقة معه إلا الزواج .

سحب دحام حميدة وشدّها من شعرها ، بصق عليها وهو يردد : ستقبلين ورجلك فوق رقبتك وكلام دحام لن يخالفه أحد ، وسأكلم نادر بالزواج .

ليلية طويلة مرّت على حميدة ، حزينة ، غاضبة ، مضطربة ، حيرة وألم ، دموعها لم تتوقف وقلبها كعصفور أفزعه ضارٍ فطار لا يرحم الظلام عينيه ، يصدّه هذا الجدار ويلطمه ذلك الغصن .

تتلفت حولها ، لا تجد شقيقاتها ، كلهنّ تزوجنّ ، بقيت هي ، صَبّرتها الوعود وأخّرها سلبية أهلها وضعفهم .

لقد قالوا لي :إنك لنادر ، أحببته ، رضيت بالنصيب ولم أكترث لما كان يقال عنه ، أحببته وأقنعت نفسي به ، لا حقا ومع مرور الوقت وظهور تردده بالزواج ، لم أعد أحبّه ولم أكرهه أيضا ، لكن وبعد تجرؤه عليّ ،وكثُرت تصرفاته المخجلة معي ، أنا الأن أمقته ، نعم أنا الأن لا أطيقه ، ما كان عليّ أن آتي على سيرة الزواج لعمي دحام ، لن أقبل ... نعم لن أقبل حتى لو اضطررت للتمرد على دحام .

ذهب دحام لبيت نادر وحدثه بشأن ما حدث .

- وصلني خبر أنك ضربت حميدة

- نعم... ضربتها

- لقد سميناها لك .. لكن لا يعني هذا أننا نسمح لك بضربها .

- بل ستسمح يا عم... إذا عرفت السبب .

- ما السبب ؟

- حميدة عيونها للخارج... وشباب الحارة يتكلمون عنها ، ويقولون أنّها على علاقة مع بصراوي، تكلم نادر بأكثر من هذا وعرف كيف يوغل قلب دحام على حميدة .

غضب دحام وقام من فوره وتوجه لبيت أبي محمود ، ما أن فتحت له الباب وإذ به ينهال عليها ضربا ، حاولت أم محمود منعه فضربها هي الأخرى ، شتم وردح وقال الكثير وهدد .

هدأت ثورته ، وناولته أم محمود سيجارة ويجلس يستمع إليها ، نبهته إلى أنّ نادر يكذب ، وكذب عليها مرات عديدة وأنّه غير جاد بأمر الزواج .

في اليوم التالي ، ذهب لبيت نادر وضغط عليه وهدده ، فطلب نادر مهلة قصيرة ليرتب أمور الزواج .

<u>الفصل السادس</u>

إنه فجر يوم الثلاثاء

ما زال هناك بقايا للثلج ، الجوّ شديد البرودة ، السماء صافية وريح قوية شمالية ، الشجر يأن من لسع الصقيع ، والحجر تجمد بمكانه .

خرج كمال قبل الوقت المعتاد ، وقف مراقبا بيت الأستاذ حمدي ، البرد يتسلل لقدميه وهو ينتظر خروج الأستاذ للمسجد ، خرج الأستاذ ، عينا كمال تتبعانه وهو يبتعد عن منزله ، توجه بخطا الخائف لشجرة الكينا، وجد الورقة بالمكان الذي حددته له بدور ، دسها بجيبه وتوجه للمسجد .

لم يكن هناك مصلون كُثر، الشيخ عبد الله والأستاذ حمدي وقلّة من الآخرين .

لم يصلّ بذلك الفجر غير صلاة الفرض ، أنهاها وعاد إلى بيته بخطا المسرع .

وصل إلى المنزل ، وفتح الرسالة .

السلام عليك ورحمة الله وبركاته . ظريف الطول .. كلّ ما في قلبي من حب وشوق ولهفة هو لك .

أميري الساحر ، كانت فرحتي كبيرة بلقائك ، عدت للبيت وأنا بقمة السعادة والسرور ، منذ أن عرفتك وحياتي ربيع يزهر بكلّ أنواع البهجة والفرح ، أشعر اني فراشة تسبح بفضاء واسع لا حدود له ، تنتقل من مكان إلى آخر أفضل منه وأجمل .

كلّ ما فتحت كتابا من كتبي أجد صورتك به أيها الغالي ، يبدو أني وقعت بغرامك يا صاحب الطول الظريف ، أشتاق للحديث معك ، وعندي الكثير لأقوله لك ، والرسائل لا تتسع .

عزيزي كمال

هناك أمر يكدر بالي ويُحزِن خاطري ، لا أعرف هل من المناسب أن أقوله لك أما لا؟ ، لكن لأني أشعر أنّ حالنا يجب أن يكون واحد ، هذا يستوجب علينا أن نُطلِع بعضنا البعض عن كل ما يجري لنا .

كمال .. لي صاحبة بهذه الحارة اسمها حميدة ، أتبادل وإياها الزيارات بشكل دائم ، زارتني البارحة ، حالها لم يعجبني ، شكت لي أمرها وحزنت لأجلها ، الفقر والأقرباء وسوء الحظّ وأشياء أخرى وقفت ضدها .

أنا أفكر بها ، كم تمنيت لو أني أستطيع مساعدتها ، سامحني، سأكتب لك عنها في رسائلي ، عليك أن تعتاد مني هذا .

أبي رآك في خطبة هناء - أخت حميدة -، ابدا إعجابه بك وبصاحبك المحامي عادل ، هو سعيد بوجود شباب متعلم وواع من أبناء عشيرته ، تكلم عنك وذكر أنك تتواجد معه بالمسجد .

فرحت بكلام أبي ، ليتك تبادر وتحاول التقرب منه أكثر ، هكذا ستأتي لزيارته في البيت وهذا يسعدني فعلا ، أودّ أن تتذوق ما أعدّ بيدي من طعام وشراب .

لا تتأفف من طول رسالتي ، أنتظر بلهفة ردّك عليها في يوم الثلاثاء القادم ، لا تنسى صندوق البريد ، جذع شجرة الكينا

المشتاقة لك (بدور)

بعد أيام فاجأ نادر الجميع ،وأعلن أنّه سيسافر لعند والده بالكويت ، ذكروه بحميدة ومسألة زواجه منها ، كان جوابه : والدي وجد لي عملا جيدا من غير الممكن رفضه ، بمجرد استقراري بعملي وحصولي على أول راتب ، سأتدبر أمر سفرها وأعمل لإحضارها عندي في الكويت .

لم يكترث بردودهم على كلامه ، وجرى سفره بشكل سريع .

دحام يطمئن وأسعد كذلك وأم نادر هي الأخرى تطمئن حميدة ، وحميدة باتت تائهة تماما ، تعيش حالة من اللامبالاة ، تهزّ برأسها موافقة على كلامهم دون أن تفكر بمحتواه .

أيام وجاءت أول رسالة من نادر

قال فيها : أمي الحبيبة .. والدي وجد لي عروسا ، هي ابنة صديق له ، سأتزوجها .

لم يذكر حميدة ولو بكلمة واحدة .

صفعة موجعة تلقتها هذه المسكينة ، خنجر اخترق الظهر وشقّ الخاصرة ، لم يعد معنى للكلام ولا للعتب ، تعاتب من ، تكلم مع من ، لا دواء إلا بالمزيد من اللامبالاة .

يكرّر دحام كلامه ووعوده ، حتى لو تزوج نادر بعشرين من النساء ، ستكون حميدة له ، سيعود لها يوما ما .

لا أحد سعيد بهذه الأخبار غير (بصراوي) ، بل هو بقمة السعادة ، سال لعاب الذئب وهو يرى ترنح الفريسة المنهكة أمامه ، أعدّ شباك صيده وجلس متربصا .

جاء ثلاثاء آخر ، أعدّ كمال رسالة الردِّ ، خرج فجرا وانتظر حتى غادر الأستاذ حمدي إلى المسجد ، وصل لشجرة الكينا ، مدَّ يده بصندوق البريد فوجد رسالة من بدور ، وضع رسالته بدلا عنها وذهب للمسجد .

قرأت بدور رسالة كمال

بسم الله الرحمن الرحيم .

بدور الغالية

قرأت رسالتك ، قرأتها عديد المرات ، نظرت لكل حرف فيها ، تفحصته منفردا ، تخيلت يدك الناعمة البيضاء وهي تحنو على الورقة وتتحرك حركة رشيقة لطيفة .

سعيد بك غاليتي ، أحسد نفسي عليك ، مشتاق لك كثيرا ، لم تشبع عيناي منك حينما زرتني في البيت ، رغبتي برؤيتك شديدة ، لا أقوى على صدّها أو اضعافها ، ليتك تتدبرين طريقة ما تسمح لنا بأن نتقابل مرّة أخرة .

قرأت ما كتبتي عن صديقتك حميدة ، أشاركك مشاعر الحزن والألم التي تحملينها من أجلها ، سعيد بأنك تحكين لي همومك وما تشعرين به ، إعجابي بك زاد أكثر فأكثر حين علمت أنك تفكرين بغيرك ، هذا يدل على نقاء سريرتك وصفاء روحك .

أعرف أحوال حميدة وأهلها ، أدرك معاناتهم والتي تأتي من أسباب متنوعة ، لا شكّ هي تعاني الأن أكثر من قبل ، قريبها نادر سافر ، بل أنّه بعث يقول :إنّه سيزوج بغيرها ، هذا أمر فظيع فعلا ، صَبُرت عليه سنينا عديدة وهاهو يرميها خلفة ، هو شخص سيئ ، ومن الجيد أنّها لم تكمل ارتباطها به ، قولي لها ذلك وهوني عليها ، أتوقع أنّ خروجه من حياتها سيكون لصالحها .

العزيزة بدور : أعود وأكرر .. تدبري طريقة لنلتقي به .

أحبك

المشتاق : كمال

قرأ كمال رسالة بدور ، لا جديد بها ، عبّرت بها عن حبّها وشرحت ومشاعرها وقالت :إنها ترغب برؤيته مرّة أخرى

في اليوم التالي ركب خالد مع رفيق له على دراجة نارية ، يروحان ويجيئان في الحارة وأمام الورشة ، زادا من سرعتهما وحاولا القيام بحركة بهلوانية ، وقعا والدراجة على الأرض ، أسرع كلّ من كان في الشارع لنجتهما .

تمّ نقلهما إلى المشفى ، كُسرت ساق صاحبه ، خالد تأذى بجروح طالت جزء ليس باليسير من جسده ، أبدا بصراوي اهتماما ملحوظا اتجاه خالد ، يهرع لجلب الدواء ، تكفل بدفع ثمن العلاج ، يتواجد معظم وقته بالقرب من المشفى .

أوكل لحميدة لتكون مرافقة للجريح خالد ، هي من تولت رعايته ، فرصة أكثر من ممتازة لبصراوي ، لم يفوتها ومدّ شباك الصيد ، أغدق على حميدة بالطعام والشراب والكلام المعسول ، حين يحضر دحام يتوارى بعيدا ، هو يعلم مكر دحام وقسوته .

زار كمال خالدا بالمشفى ، لاحظ تبادل نظرات الاعجاب المتبادلة بين حميدة وبصراوي .

بعد ثلاثة أيام في المشفى ، عاد خالد إلى بيته سالما معافى ، الحارة كلها زارته هناك وهاهم يستقبلونه هنا .

ثلاثة أيام كانت كافية تماما لتأسيس علاقة حب وغرام بين بصراوي وحميدة .

شمس الربيع الدافئة حنت على الارض بعد طول ابتعاد ، لا أجمل من الربيع إلا رسائل الثلاثاء التي تنتقل بين كمال وبدور ، براعم دالية العنب اندفعت مرحبة بالضيف غاب فصولا ، ها هي حمامة الدلم عادت تتفحص مكان عشها القديم الذي أجبرها برد الشتاء على هجره لحين .

لقاء ربيعي جمع حميدة وبصراوي على سطح منزلها ، تركت له الباب مفتوحا ، تسلل وصعد على الدراج ، لحقت به ، جلسا القرفصاء بجانب خزان المياه ، ركبتيها تلاصقان ركبتيه ، يداه تلفان يديها الدافئتين.

قال لها : يداك دافئتان

- ويداك بارتان .. لحظة ويتغلغل دفئي لبردك ، فتزول الفروق وينتهي الأمر بأن نكون جسدا واحدا .

- حميدة

- نعم يا عيون حميدة

- أحبك منذ زمن بعيد ، حاولت كثيرا أن أكون لافتا لك .

- لاحظت ذلك يا نور عيني ، لكن أنت تعلم كيف كان حالي .

- نعم أعرف وأعذر ، زمن ذهب وولى ، سنبدأ من جديد

- نعم لنبدأ من جديد .

المحامي عادل اشترى دراجة نارية

سيستخدمها للتنقل بين القرية ومكتبه بالمدينة ، الجوّ الأن يميل للدفء وركوب الدراجة بات ممكنا .

ركبها وكمال معه وتوجها للقرية ، بدت حقول الشعير والحنطة كبحر أخضر واسع لا حدود له غير الأفق ، سهول فسيحة ترتاح العين حين تمدّ النظر بها ، موسم جيد ينتظره الفلاحون هذا العام .

لاحت قرية القادرية من بعيد ، تناثرت البيوت بغير انتظام ، مكعبات بيضاء ارتمت على هضبة خضراء قليلة الارتفاع ، بعض من بساتين الزيتون تقطع السهل الأخضر الفسيح باتجاهات مختلفة ومتعاكسة ، مضيفة ألوانا وخطوطا جديدة للوحة البديعة ، الطريق العام حنش أسود عملاق ،نام مستمتعا بأشعة الشمس التي

نثرت عليه شيئا من اللمعان ،الدراجة تسير عليه ببطئ والشابان يتبادلان أطراف الحديث بكثير من الود والألفة .

الجزء السابع

(دق الحديد وهو حامي)، هكذا قال بصراوي لنفسه ، توجه إلى أم محمود وطلب يد حميدة.

قالت له أم محمود : سأخبر أعمامها بالأمر ونعلمك بردّنا .

ثارت ثائرة دحام ورفض الأمر مظهرا غضبه .

لم يكن يوما جيدا لبصراوي ، ما أن سمع بالردّ حتى اضطرب وصار يتعامل مع السيارة التي كان يعالجها بحدّية وانفعال ، رفع صوته على خالد وشتم عمه دحام .

بقي هكذا لساعة من الزمن ، هدأت ثورته وعاد لاتزانه واعتذر من خالد .

بإشارة منه كان قد اتفق عليها مع حميدة في لقائهم السابق ، بهذه الشارة من يده فهمت أنّه يطلب لقاء جديدا معها .

بموعده ،بعد منتصف الليل ، وجد باب البيت مفتوحا ، كما المرّة السابقة تسلل وجلس بجانب خزان المياه ، جاءت على الفور، تحدثا بشأن الخطبة ، اقترحت عليه أن يكلف الأستاذ حمدي بهذه المهمة ، هذا ما سيحصل فعلا .

خرج كمال فجر ذلك اليوم قاصدا المسجد ، وصل أمام بيت الأستاذ حمدي ، انفتح باب المنزل ، صوت بدور هامسا يناديه .

- كمال .. كمال .. تعال .. أنا بدور

- اقترب منها .. بدور ؟

- نعم... أُدخل بسرعة

- لكن ..لكن ..

- لا تخف... أبي وأمي حلّا الليلة ضيوفا في بيت أخي ، لا يوجد في البيت سواي و بنات شقيقتي وهنَّ نائمات الأن .

أدخلته إلى المطبخ ، لقد أعدّت الشايّ مسبقا .

- هل تعلم ؟... لم أنم الليلة ..أحببت استثمار فرصة غياب والداي ... بصراحة مشتاق لرؤيتك كثيرا ، أرجوا من الله السمح والغفران ، أشعر أني ارتكب ذنبا كبيرا ، استغللت غياب والداي وأحول بينك وبين المسجد ، ربّاه سامحني .

ضحك كمال من طريقة كلامها وارتباكها .

- تضحك !

- نعم... هل عليّ أن أبكي ؟

- طبعا أنت لا يهمك... فأنا من ارتكبت الذنب .

- دعك الأن من الذنوب ، الله كريم ويسامحنا جميعا .. لابد أنّ لديك من الحديث الكثير، الوقت ليس لصالحنا ، سيظهر نور الصباح قريبا .

- والله نسيت .. صدقا نسيت ما كان ببالي .

- إذا كسبنا شرب الشايّ فقط .

- قريبا يا كمال سينتهي دوام المدارس ، ستعود لقريتك ، سنعاني مشكلة صعوبة تواصلنا مع بعضنا بالعطلة الصيفية .

- فكرت بهذا ووجدت خطة وكنت أودّ أخبارك بها .. جيد أنّك ذكرتني بالأمر .

- ما هي خطتك يا ظريف الطول .

- لدي قريبة هنا بحارتكم .

- أعرفها .. أم يوسف... دائما تمتدحك أمامي .. من كُثر مديحها لك .. حسبت أنها تدري بعلاقتنا

- بصراحة... هي تدري

- أواه .. لم تحفظ السر أذا .

- لا أبدا .. لكن هذه المرأة ذكية... فاجأتني بكلامها عنك .. شعرت أنها تعرف كل شيء .. فقلت لها

- لا مشكلة... هي صديقتي وأنا أثق بها .

- هذا جيد... إذا سأضع رسائلي عندها وأنت أيضا تفعلين الامر نفسه .

- طيب... بأمرك يا جميل

تبادلا بعض الحديث ، خرجت وتفقدت له الطريق ، كان الشارع خالّ ، خرج وتوجه للمسجد ، وجد الشيخ عبدالله يستعد للخروج .

- تأخرت يا كمال... تذكر (الصلاة خير من النوم)

- لن أنسى يا شيخ عبد الله ، سأتذكر هذاك دائما .

- حسنا عندما تخرج .. أغلق الأبواب خلفك .. هناك كلاب شاردة تدخل المسجد إذا ما وجدت الأبواب مفتوحة .

صلى كمال وحده ، جلس بطرف المسجد يتأمل هذا السكينة ، لا أصوات ولا حركة ، أطياف وهالات تحلق بفضاء واسع ، أنوار الصباح بدأت تتسلل من زجاج النوافذ ، زجاج بألوان مختلفة صبغ الأنوار بألوانه ، في هكذا لحظات تتجرد الأرواح والأنفس من أشياء كثيرة ، تغدو خفيفة شفافة نقية ، لا حقد لا بغض لا تنازع ، سلام تام فيه متعة تنساب رقراقه ، يصعب الاحتفاظ بها .

خرج كمال من المسجد ، انتشر الناس بالشارع ، تلاميذ وعمال يتحركون قاصدين أعمالهم ، بصراوي يقف مع الأستاذ حمدي أمام بيت الأخير ، يكلفه مهمة خطبة حميدة .

في المساء ،جاء الأستاذ حمدي ، وحدّث دحاما وأسعد بالموضوع ، وقبل أن يكمل الجُمل الأولى ، ردّ دحام بالرفض المطلق ، حاول الأستاذ بكلّ الطرق والأساليب دون جدوة ، ذكره بأن شقيقاتها اللواتي يصغرنّها تزوجنَّ جميعا وأنّ من ترضون خلقه ودينه زوجوه ، وأردف : من الأخطاء الكبيرة إبقاء الإناث دون زواج .

دحام يقول : اتصلت بنادر وأنّ الأخير ما زال راغبا بحميدة وإذا عاد من سفره سيتزوجها بالتأكيد .

لم يوَفَق الأستاذ بمهمته ، ذهب لبيته وهو حانق على دحام و جلافة وقسوته .

قال دحام : موضوع هذا الميكانيكي تكرر غير مرة ، لن أسمع بالحديث به من جديد .

قالت حميدة : لا أجد مبررا لرفضك يا عم .. لن اتزوج من نادر حتى لو عاد وطلبني .

- أفهم أنّك تريدين هذا البصراوي .. قولي .. جاوبي

- نعم... أنا موافقة على بصراوي

هجم باتجاهها وانهال عليها بالضرب ، عادت وكررت كلامها ، فكّبُر غضبه ، وزاد من قوة ضربه ، خالد يبكي ويرمي نفسه بين عمّه وشقيقته .

سحبها من شعرها وأدخلها أحد غرف المنزل وأغلق الباب خلفه، ضربها بخرطوم كان بيده ، لم يكترث لصراح أم محمود وهي تضرب بيدها باب الغرفة .

وصلت درجة غضبة حميدة لمرحة لا تطاق .

صرخت به : لن أسمح لك ببيعي لعشيقتك أمّ نادر... نعم هي عشيقتك ورأيت كل شيء .

توسعت عيناه وفتح فمه متفاجئا من كلامها ، ازداد غضبه ضعافا ، اقترب منها ووضع فمه على أذنها وقال : سأقتلك إن كررت هذا الكلام لأحد كائنا من كان... سأقتلك .. افهمي .. كلمة واحدة بهذا الموضوع وسأقطع رأسك ،جمع أصابع كفه ، ركلها على وجهها بقسوة .

خرج دحام ، احتضنت حميدة خالد ، انفجروا نشيجا وبكاء .

ليلة حزينة كئيبة أمضتها ، ارتعشت أهدابها بالندى ، وخفق قلبها بالأسى

وصلت لمرحلة لما بعد اللامبالاة ، ممددة بفراشها ملتفة بجراحها التي اعتادت عليها ، غير مكترثة لما يجري حولها ، يتصارعون ، يتنافسون ،يعيثون بكلّ ما كنت حريصة عليه .

نعم كانت حريصة عليه ، الأن لم تعد حريصة على أيّ شيء ، غريب حال الإنسان ، تأتيه لحظة وإذ بموقفه من الأشياء قد تغير وتبدل إلى النقيض .

فجأة يكتشف أنّ لا قيمة لما كان ذا قيمة ،ولا وزن لما كان يحسب أن له ثقلا .

كل عملاق يتقزم بعينيه ، وكل جبار هو ضعيف يستحق الشفقة، كأن البشر قد تجردوا فجأة من صفاتهم وألقابهم ومواقعهم ، لا شيء في الصدر غير القلق والخوف . ، دحام سيقتلني ، لن يرحمني بعد أن عرف أني رأيت رذيلته مع عشيقته أم نادر ، استطاع وخلال سنين طويلة إخفاءها ، لن يسمح بانكشاف السر ، ربما يقول لأم نادر ما جرى بيني وبينه ، سيتأمر الاثنان عليّ ، يجب أن أفكر باقتراح بصراوي ، لما لا ؟

<u>الجزء الثامن</u>

وأصفر الزرع ، السنابل تستعد للنضوج ، وعطش العشب وتحول يباسا تذروه الريح ، رياح الخماسين تتجول بالمكان ، ترمي مرضها ويأسها على السهول والوديان ، التلاميذ يستعدون لهجر مدارسهم ، وكمال يستعد للعودة للقرية ، لقد جهز أغراضه ... في العاشرة صباحا سيأتيه عادل ومعه سيارة لينقله وأغراضه إلى القرية .

في ذلك اليوم . ذهب كعادته لصلاة الفجر، لاقاه رجل يمشي بخطا سريعة ، ممسكا بيد امرأة تمشي مضطربة خلفه ، مرّا بالقرب من كمال ، إنّه بصراوي ،

لم يلقي التحية على كمال ولم يقل له شيئا .

همّ كمال للتحدث معه .. لكنّه تراجع .

تكشف الصباح على جوّ مغبر ، السماء رمادية ، تخطر بقدوم عاصفة رملية ، أتى عادل ومعه السيارة ، بدأ بتحميل أغراضه ، جاء خالد لمساعدته

- كأنك لم تذهب للورشة يا خالد

- ذهبت .. وجدتها مغلقة...يبدو أنّ المعلم بصراوي لديه ما يشغله .

كل شيء بات جاهزا ،ركب عادل بجانب السائق ، حضن كمال خالدا مودعا إياه ، انفجر المكان بصراخ امرأة ، ، صراخ شديد ومرعب ، الصراخ آتّ من بيت خالد .

نزل عادل وركض وكمال إلى مصدر الصراخ ، اجتمعت الحارة كلّها .

(هربت حميدة مع بصراوي .)

ركب عادل وكمال ومشيا بالسيارة ، آخر ما شاهداه ، دموع خالد وهو يقف أمام بيته وحوله أعمامه ، كان دحام يهدد ويتوعد ، بدور تقف أمام بيتهم وعيناها على السيارة التي ذهبت تحمل الحزن والغضب والحيرة .وصل بصراوي وحميدة لحيث توجها ، يبدو أنّ صاحب له أعطاه بيتا في أحد أحياء حلب الشعبية ، دخل وصاحبه وحميدة البيت ، بيت صغير قديم يحتاج لكثير من الجهد لتهيئته ، ربما كلمة كوخ هي أقرب لوصفه من كلمة بيت ، كوخ بُني بطرف أحد الحارات العشوائية ، جاور بيوت الحارة من طرف وطرفه الأخر إلى الخلاء ، باب حديد متهالك تقشر دهانه وظهرت بقع الصدأ عليه ، يصدر صوتا مزعجا كلما فُتح أو أُغلق، يلتصق به مرحاض قذر تصدر منه رائحة كريهة ، جدار خارجي من البلوك المكسر المهشم ، شريط كهرباء وحيد يأتي من الجيران برأسه مصباح يبعث نور خافتا فيه احمرار ، حنفية وحيدة في زاوية سقفوها بالصفيح قيل أنها المطبخ ، غرفة وحيدة ألقيت بها حصيرة قديمة وفراش من الاسفنج وبعض البطانيات .

نظرات وابتسامات هذا الصديق لم ترق لحميدة ، بقيت هي بالمنزل وهما خرجا ، عاد بصراوي بعد قليل يحمل شطائر ، لأول مرّة يأكلان مع بعضهما ، لم يتكلما كثيرا ، كانا قلقان مضطربان محتاران ، الصورة ضبابة ودخلا نفق لا يعرفان إلى أين سيصلان به .

حين خرج قال لها : سأبحث عن مأذون يعقد لنا عقد الزواج ، اهتمي بتنظيف البيت .

سأل عن مأذون ، فدلوه على واحد ، دخل عليه وشرح له وضعه ، رفض المأذون طلبه .

دلوه على آخر ، فعل مثل الأول ، بل زاد عليه بكلمات الملامة والتوبيخ .

لم يجد مأذونا يكتب له ، اشترى طعاما وعاد إلى البيت ، اختلاف كبير بين ما كان عليه البيت وما أصبح عليه الأن ، لقد قامت بتنظيفه بشكل جيد ، أخبرها بما جرى معه ، زاد قلقهما ، مقدمة غير مبشرة لكتاب لتوهما بدآ قراءة صفحته الاولى الأن

، نامت هي بالغرفة ، ونام هو بالفناء ، لم يكن نوما بقدر ما كان صمتا وتفكيرا ، صور الأهل ، تَخَيّل لحالهم الأن بعد أن عرفوا ما جرى ، ماذا قالوا ؟ ماذا فعلوا ؟

أفكار وصور كثيرة تتزاحم في صدرها ، هل أخطأت ؟

لقد قال لي بصراوي : سيكون الامر هينا ، سنذهب لبضعة أيام ونضعهم بالأمر الواقع ، سيقبلون قرارنا ونعود زوجان سعيدان ونعيش في بيت واحد .

قال لها : إن لم تذهبي ، لن يتغير حالك إلا للأسوأ ، سيبقى دحام يضربك وستبقين بوضع معلق مع نادر ، قال لها وقال وقال .

تناجي نفسها وتقول :لا مجال للتراجع ، ركبتي طريقا يا حميدة وعليك إتمامه ، شوكا كان أم حجرا ، سهلا هو أم وعرا، لا مفر من المسير .

خرج بصراوي صباحا لنفس المهمة (البحث عن مأذون) .

وجد واحدا ، لكّنه طلب مبلغا كبيرا ، رفض وخرج من عنده وهو يصرخ : لا تعقدوا لي عليها .. سأذهب وأدخل بها والذنب برقابكم يا شيوخ الدرهم ، ركض خلفه صبي الشيخ ، ينادي عليه : عد أيها الرجل يمكننا تخفيض المبلغ... عد .. يمكن أن تدفع النصف فقط .

المؤذن أذن لصلاة الظهر ، دخل المسجد ، توضأ وصلى مع المصلين ، اتكأ على عامود المسجد ، كان مرهقا وقواه تكاد تخور، نام نوما عميقا ، أحدهم يوقظه ، فتح عينيه وإذ بشيخ طاعن في السن لحيته بيضاء طويلة ، ملامحه تدل على الوقار والهيبة .

- ما بك أيها الشاب ؟

جلس الشيخ بجانبه وطلب منه أن يقص حكايته ، حدثه بكل شيء .

قال الشيخ : ما كان عليك أن تفعل ما فعلت ، ستأتيك المشاكل يا ولدي .

- لم أخطئ يا شيخ ، خطبتها أكثر من مرّة ، أردتها بالحلال ، هي تنام الأن معي تحت سقف واحد وخلف باب مغلق ويعلم الله أني لم اقترب منها ولم أمسسها ،لماذا تصعبون عليّ ما أحلّه الله وتدفعون بي للحرام .

- أعلم يا ولدي . لكنّهم لن يرحموكما ، أعرف مجتمعنا، يهتم بعاداته أكثر من الدين والأدب والعلم ، اذهب وآتّ بها وبشاهدين لأكتب لكما .

ذهب لصاحبه وتدبرا أمر الشاهد الآخر ولوازم كتابة العقد ، تّم الأمر، أصبحت حميدة زوجته .

هاجت وماجت عشيرة (البو ملاح) ، أضحت كثور نخزه أحدهم بإبرة ، طعنة في شرف العشيرة ، دحام وما أدراك ما دحام ، عاقب العائلة كلها ، ضرب وشتم وتوبيخ .

رحلت عائلة بصراوي ، قيل أنهم ذهبوا لأقاربهم بالريف ، لقد وصلتهم تهديدات قوية بأن بيوتهم ومحلاتهم وأرزاقهم سيتمّ حرقها ، بل قد يصل الأمر للدم .

بصراوي وحميدة وبعد أن كتبا عقد الزواج ، هدأت نفوسهما وشعرا بشيء من السعادة ، عاشا الحب واستمتعا به ، عاشا لأيام كأيّ عروسين جديدين ، وجد عملا بأحد الورشات ، يعود مساء حاملا حاجيات المنزل ، كلّ هذا يضيف طمأنينة وارتياح لروح حميدة التي تعذبت كثيرا .

في تلك الليلة ، كانا يعيشان ساعة حب ، صدره على صدرها وشفتاه تداعيان أذنها وتهمسان كلمات العشق والغرام .

سألها عن نادر ، هل رأى ما خفيّ من جسدك ، هل قبّلك ، هل وهل .

كان يقول لها : لن أغار ، أنا أعرف أنّك ارتبطت معه لسنوات ، لن ألومك إذا اعترفت لي ، لقد قاتلت لأجلك ، انا أحبك ، هكذا استمر بالإلحاح عليها .

حكت له بعض مع حدث معها .

تغيرت ملامحه وساد الصمت ، لقد ارتكبت(الخطأ الأول) .

مضا أكثر من شهر ، كلّ يوم كانت تسأله ، هل اتصلت بأهلك ؟

يجيبها : لا لم أفعل .. أعلم أنّ الأخبار سيئة ولا أريد أن أعكر مزاجي ومزاجك .

الجزء التاسع

الصيف في القرية جميل ،نسائم ليل حزيران منعشة ، عادل وكمال يمشيان وحدها على طريق ترابي يتلوى بين الحقول و الكروم ، السماء صافية والنجوم تتلألأ كحبيبات برد انتثرت على سجادة سوداء ، أضواء هنا وهناك لجرارات وحصادات ، وأصوات الفلاحين تأتي من بعيد .

- ما رأيك يا عادل بما قامت به حميدة

- مجنونة .. نعم مجنونة .. لن يتركها دحام .. أنت تعرف كم هو قاس ولئم ... ولا تنسى أنه يعتز بقسوته ويعتبر نفسه أحد أركان العشيرة .

- أوفقك بما قلت ... وأعتقد أنّ المسالة أوسع من دحام ، للأسف كثيرون هم من يعتبرون أنّ شرفهم تأذى جراء ما قامت بها حميدة .

- ما الذي تتخيله كنهاية لهذه القصة ؟

- من الصعب التخيل .. لكنّها على الغالب ستكون نهاية مؤلمة وحزينة .

بعد أيام ذهب كمال للحارة (ن)

ورشة بصراوي مغلقة ، أم محمود لا تجلس أمام بيتها كعادتها ، وجوّ بائس يخيم على المكان .

طرق باب بيت أم يوسف ، خرجت له مرحبة ،فرح الصغير يوسف وقفز على حضن كمال ، أخرجت له كرسي وطلبت من الجلوس ، رفض، قال لها : وضع الحارة غير مريح ولا يحب البقاء فيه .

- هناك أمانة لك

- نعم... جئت لأجلها

ناولته الأمانة وغادر الحارة على الفور ، ذهب لحديقة المدينة ، فتح الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

حبيبي كمال

مشتاق .. مشتاق .

مشتاق لرؤيتك يا حبيبي .

الحارة من دونك ومن دون حميدة كئيبة حزينة ، لم أطق المكوث بها ، من الجيد أن لديّ فحوصا جامعية ، أنا الان بحلب ، ليتك تفعلها وتأتي إلى هنا ، ستجدني بانتظارك يا ظريف الطول .

آلمني ما قامت به حميدة ، قلبي يتقطع ، أريد من أتحدث إليه ، ليتك تأتي لحلب .

المشتاقة : بدور

عائلة بصراوي تبعث برسول لشيخ عشيرة (البو ملاح) ، يطلبون الصلح ، اجتمع الرسول منفردا مع الشيخ ودس بجيبه مبلغا جيدا من المال .

بعد يومين من مجيئ المبعوث ، جرى في بيت الشيخ حازم اجتماع غير موسع، جمع المساعد أول ناصر ومختار قرية الزينة ودحام وأسعد .

أخبرهم الشيخ بقدوم ذلك الرسول، رفض دحام وأعاد حديثه عن الانتقام والثأر ، سيقتل ويذبح ويقطع الأرجل ويسلب العيون .

صَبَر عليه الشيخ وأعطاه فرصة كاملة لإتمام حديثه ، وعندما انتهى ، تحدث الشيخ ووجه كلامه لدحام ، أوضح له أن الذبح والقتل ليس بالهين ، وكما أنت قادر هم قادرون على القتل أيضا ،ابنهم وانبتنا أخطأ ولا ذنب للأهل بما أقدم عليه الأبناء .

تكلم الشيخ كثيرا وأقنع دحام والآخرين بمسألة الصلح .

جرت جلسة الصلح عند طرف ثالث ، أثمرت اتفاقا يقول :

- تدفع أسرة بصراوي مبلغا ماليا يعادل قيمته مّهر عروس مضروب بثلاث .

- يعود أهل بصراوي وأقربائه لبيوتهم ومحلاتهم وأرزاقها .

- مصير بصراوي لعشيرته ومصير حميدة لعشيرتها ، وكل يتصرف بما له .

وهكذا .. لم يعد بصراوي مطلوبا لعشيرة (البو ملاح) ، مصير حميدة غامض ، تحدده عشيرتها .

بعد أيام تواصل بصراوي مع أهله وأخبروه بما جرى معهم ، فغضب غضبا شديدا ، أفرغ كلّ غضبه هذا على حميدة ، لأول مرّة يضربها، اسمعها كلاما قاسيا .

- دفعت بك مهر ثلاث نساء .. شردت أهلي لأجل واحدة سلمت نفسها للص الدجاج استمتع بجسدها ، دحام الذي أهان عمتي ونادى عليها بمكبرات المسجد يتمتع الأن بنقودي ، كله منك أيتها المصيبة ، أنت عاهرة ، أنت تافهة . أنت .. أنت ..

هذه هي اللغة الجديدة التي استخدمها وسيستمر بها بصراوي .

ذهب كمال لجامعة حلب ، وجد بدور هناك .

فرحا بلقاء بعضهما ، جلسا بحديقة الجامعة جلسة طويلة ، تحدثا بكل شيء ، كانت بدور حزينة على حميدة ، بكت أمامه، ارتعش أهدابها مبللة بالدمع .

- كان يوما صعبا ذلك اليوم المشؤوم ، ذهبت أنت للقرية، ام محمود تولول ، لقد ضربها ذلك الوحش ، حمّلها كلّ المسؤولية ، المسكين خالد يجلس القرفصاء وينتحب هو الآخر ، جاءت بناتها تجمعنّ حولها ، توبيخ وردح من الأصهار، رأيت أحد الأصهار وهو يضرب أحد بناتها ، المنظر كان بشعا مشحونا بالغضب والحزن والألم ، ساعة ذهبوا جميعا ، صعدت مساء على السطح ، أنوار بيتك كانت مطفأة وكذلك أنوار بيت أبي محمود ، يبدو أنّهم ذهبوا لأقاربهم ، الحارة ساكنة والشارع خال إلا من بعض المارة .

- أما أنا .. وصلت لبيت أهلي .. تركت لهم مهمة تنزيل الأغراض ، تركني عادل وذهب ، دخلت غرفتي وأغلقت خلف الباب ، نادوني ، لم اهتم بندائهم ، نمت .. نمت .. أردت الهروب من الأسئلة .. كنت خائفا من الكلام .

تغير بصراوي كثيرا بعد أن سمع أخبار أهله ، يعاملها بقسوة ويسمعها أقذع الألفاظ ، يعيرها بنادر ويذكرها أنّ عمها دحام أهان عائلته قديما .

من الواضح أنّ في داخله شيء قديم ، ميراث من الأحقاد انتقل إليه بقصص الآباء والأمهات .

كلّ يوم جديد على حميدة هو أسوأ مما كان قبله ، يمضي بصراوي نهاره كله بالورشة ، يسهر مع أصدقاءه ، يأتي في الليل يلقي فضلات رجولته بأحشاء حميدة ، فأثمر ذلك ، حميدة حامل الأن ، بطنها يكبُر وهمّها كذلك ، هكذا كانت الأيام تمرّ عليها .

قلل من إنفاقه عليها ، صار يبعث -مع سائق يقربه- معظم دخله لأهله .

في أحد الأيام ،جاء بصراري قبل موعده المعتاد ، قال : إنّ صاحبه(بكرو) يريد أن يعزمه في بيته ، زوجته تريد التعرف عليك .

عند المساء ذهبا لبيت (بكرو) .

كان الجوّ حارا ، جلسا على سطح المنزل ، بكرو وبصراوي يحبان الجلوس أمام الحمائم ، لدى بكرو مجموعة كبيرة منها، هو مربي حمام محترف ، مهتم بطيوره ومعظم حديثه يدور حولها .

بصراوي يشاركه نفس الهوى ، قرّر أن يبني بيتا للحمام فوق السطح ويعمل مثل بكرو والذي وعده بأنه سيعطيه العديد منها .

زوجة بكرو ، امرأة ثرثارة ، مهملة بثيابها ومظهرها ، لديها أربعة أولاد ، دائمة الصراخ عليهم ،هم معتادون على نهجها ، يتصرفون بعبثية ، هذا يكسر الكأس وذاك يتعثر بالسفرة ، وهي لا تفعل شيء غير الصراخ .

الرجلان منهمكان بالحديث عن الحمام ، وحميدة لا رغبة لها بطعام بزوجة بكرو .

عينا بكرو المريبتان تلاحقان حميدة ، لم ترتح له منذ أن رأته أول مرّة .

حميدة تعرفت على بعض الجارات ، هنَّ يحضرنَّ من المعامل والورش بعض الأشياء ، ينجزنها ويأخذنّ على انجازها بعض المال ، فعلت حميدة مثلهنَّ ، بدأت تحصل على دخل قليل عانها على عوزها .

فشلت كلاب الصيد التي أطلقها دحام للبحث عنها ، عادت أم محمود لبيتها ، الحارة تستعيد ببطئ عافيتها .

الجزء العاشر

انتهت العطلة الصيفة ، رجع تلاميذ الريف إلى المدينة ، وكمال هو الآخر عاد ، أنزل أغراضه وهيئا مكانه ، دالية وخلال غيابه العنب أورقت وأثمرت وتستعد الأن

لنفظ أوراقها ، ما زال بها بعض العناقيد الصغيرة ، حمامة الدلم بنت عشها وفرخين صغيرين يمدان رأسيهما يستطلعان الساكن الجديد .

بدور على سطح بيتها ، سعيدة بالحبّ الذي سكن بجوارها .

عادت الحياة كما كانت في السنة الماضية ، رجع كمال يصلي صلاة الفجر بالمسجد ، يعرج يوم الثلاثاء لشجرة الكينا ولصندوق البريد فيها .

حصل على الرسالة الأولى .

حبيبي كمال

سعيدة بعودتك لحارتنا ، كلمة سعيدة قليلة وغير معبرة عما أشعر به من فرح وسرور بقدومك أيها الغالي ، مضى هذا الصيف بطيئا ثقيلا ، عددت أيامه وساعاته منتظرا رؤية نور بيتك وهو يضيء من جديد ، فأعرف أن ساكنه قد عاد ، اتخيلك بلباسك الأزرق وربطة العنق الحمراء تمرّ أمام منزلنا ، تتلفت ، تبحث ، تحاول رؤيتي ، كلّ صباح وعند موعد مرورك ، أرفع صوت الأغاني ، أحاول استعادة ما عشناه في السنة الماضية .

أنت اليوم هنا ، سنستمر يا حبيبي كما كنا ، وسأعمل على لقاء يجمعنا .

المشتاقة : بدور

فرح الصغير يوسف وأمه بعودة كمال

زارهم في بيتهم ، ضحك كثيرا وهو يرى الصغير يقلده بمشيته ، يحمل كتابا بيده ويرفع هامته ويمشي باعتدال ، حدثته أم يوسف عن بدور وأخبرته أنّها أكثرت من زياراتها وترددها عليها وكلّ هذا لأجل خاطرك يا كمال .

هناك ميكانيكي جديد بالحارة بدلا عن بصراوي ، خالد يعمل عنده ، تغير خالد ، اختفت تلك المسحة البريئة التي كانت ترتسم على وجهه ، إنه يدخن الأن ، لم يقترب من كمال وهو ينزل أغراضه ، هذا التغير يقلق كمال .

غادر بصراوي البيت حيث مكان عمله ، حميدة مشغولة بترتيب البيت ، أحدهم يطرق على الباب

- من بالباب ؟

- أنا بكرو... زوجتي أعدّت طعاما و أحبت تتذوقي بعضه .

- (فتحت حميدة الباب وتناولت صحن الطعام) . شكرا لكم بلغ سلامي لها .

- هل بصراوي بالبيت ؟

- لا .. ذهب لورشته .. ليتك تبعد يدك قليلا .. أريد إغلاق الباب .

- حسنا سأبعدها ... لكن .. لكن ..

- ماذا ؟

- لا تقولي لبصراوي أن بكرو هو الذي أتى بالطعام . قولي له .. الولد الصغير هو من أتى به .

أغلقت الباب حميدة ، كانت مضطربة وخائفة ، هذا الرجل يخيفها .

في ذلك اليوم ، استيقظت أم محمود من نومها ، تشعر بالتعب ، حرارتها مرتفعة وتشعر بالدوار ، تتنفس بصعوبة ، ذهب خالد واستدعى شقيقه ونقلوها للمشفى بسيارة الأستاذ حمدي .

نامت بالمشفى يومين وعادت لمنزلها ، جاءت بناتها لزيارتها .

دار حديث بينهنَّ

- زوجي ومنذ أن ذهبت حميدة وهو يضربني ويهينني ، إنه يعيرني بها باستمرار

- وزوجي أيضا يفعل الامر نفسه .. بل يزيد عليه ..يقول : أنتم عائلة جبانة ، لو كان عندكم رجال للحقتم بها وقمتم بقتلها

- أما أنا فإنه حاول منعي من القدوم إلى هنا وزيارة أمي ، يريد أن يقطع صلتي معكنَّ ومع أهلي .

- زوجي يخطط للزواج من امرأة أخرى .. لم يعد يحترمني .. بل أنه يعلم أولادنا عدم احترامي .

- هل تعلمين يا أماه ماذا فعلوا بالمال الذي أخذوه من عائلة بصراوي ؟

- أواه .. قال لي عمك دحام أنه سيبقيه عنده ، سيحتاجه بالمستقبل لأمر ما ، هو يخطط لأمر خطير .

- سمعت من زوجي ، أنهم تقاسموا المبلغ ، شيخ العشيرة أخذ الربع و الباقي لعمي دحام .

- لا تزدنَّ همي يا بنات ، أعرف كلّ هذا ، لكن لا أستطيع فعل أيّك شيء .. لقد طلب خالد من عمه دحام ثمن الدواء... نهره وأراد ضربه .. كثر الله خير الأستاذ حمدي .. لولاه لكانت الامور سيئة جدا .

- يا أمي .. نحن الثلاثة تزوجنَّ بالريف ، الناس هناك لا يعرفون الظروف التي دفعت بحميدة لتركب هذا الطريق .. بل نظرتهم تشمل كل أسرتنا .. أنا متضايقة جدا .. أشعر أنّ نظراتهم لي خناجر تطعن خاصرتي .

- لا بأس يا بنات .. الصبر .. ليس بيدنا غير الصبر .. الله فوق الجميع ويعلم بخفايا الصدور .

حفل كبير يستعد طلاب معهد إعداد المعلمين لإقامته (غناء وشعر وقصة قصيرة ومسرح)، الدعوة عامة .

صندوق بريد الثلاثاء الموجود بجذع شجرة الكينا أخبر بدور بهذا الحفل ، ستكون لكمال مشاركة شعرية به .

حفل جميل وضخم ، حضره الكثير من الناس ، تلاميذ الثانوي والمعلمون والمهتمون جميعهم تواجد في المركز الثقافي بذلك اليوم .

جلست بدور على المدرج أمام كمال ، بدأ يلقي قصيدته ، كانت قصيدة جميلة ، تحدث عن الحب وشجرة الكينا ويوم الثلاثاء والثلج .

فرحت بدود بقصيدته ، شعرت بالفخر ، كادت الدموع تذرف من عيناها وهي تستمع لقصتها مع كمال ، صاغها شعرا جميلا.

بعد يومين كان كمال وعادل في مكتبة المركز الثقافي.

يمشيان بين أدراج الكتب يبحث كلّ واحد منهم عن كتاب يستهويه .

المكتبة شبه خالية ..لم يكن هناك سوى أحد الأساتذة الكبار وأمين المكتبة وشخصان آخران .

دخلت ثلاث شابات.

هنّ أيضا يبحثنّ بين الكتب.

تلاقت عيناها بعيني عادل ..عينان واسعتان بشكل لافت ...شعر عادل بأنّه يعرفها ..وجهها ليس غريبا عنه..

أخذت أحد الكتب ..وجلست بعيدا بصالة المكتبة .

هي الأخرى تتابعه بنظراتها ..تهمس لرفيقاتها ونظراتها باتجاهه ، انشغل بأمرها ..كان يقلب صفحات الكتاب دون أن يقرأ به ولا حتى كلمة واحدة .

بعد قليل أتينّ جميعا، كنَّ بقيادة ذات العينين الواسعتين

- السلام عليكم

- وعليكم السلام

وجهت كلامها لعادل

- أنت الرسام ؟

- لا ..أنا محامٍ .. لست رساما .

- ربما تكون محاميا الأن... لكنّك كنت رساما حينما كنت تلميذا في معسكر الصف العاشر منذ أكثر من عشر سنوات .

- تذكرتك ..لقد كنا سويّا في ذلك المعسكر .

- نعم وكان رسمك جميلا ولا شكّ أنّه تحسنه الأن أكثر من ذي قبل

- نعم ..فعلا ...كنت أرسم بذلك المعسكر وأعتقد أني تذكرتك جيدا .

- هل ما زلت ترسم؟

- نعم أحيانا

- انتظرني ..سأذهب وأعود إليك ..أرجوك لا تغادر المكتبة .

جلس كمال وعادل ينتظران

كمال ينظر لعادل ، لأول مّرة يراه محتارا ومرتبكا .

قال كمال : اصمد أيها الأستاذ ، لم أعهدك هكذا .

- أنا .. أنا هادئ .. أنظر أنا أقرأ .

مدّ يده كمال وأدار الكتاب الذي بيد عادل وقال : يبدو أنك تحسن القراءة بالمقلوب .. أنت تمسك الكتاب بالعكس يا أستاذ .

- بصراحة... أعادتني لأيام الصبا .

سويعة عادت من مع رفيقتيها ...كانت تحمل دفتر رسم من النوع الممتاز وأقلام رصاص وفحم.

- وعدتك بالعودة ..وها أنا عدت

- أهلا بك

قال كمال : سأتركك للرسم وأذهب .. لدي بعض الأعمال .

رفيقاتها ذهبنّ للبحث بين أدراج الكتب ، بقيت وحدها مع عادل .

- سترسمني اليوم ..عشر سنوات مضت ....أردت أن ترسمني بذلك المعسكر ..لكن كنت مترددة ولم أطلب حينها .

- ولكن ..لكن

- لا تقل شيئا ..باشر عملك .

جلس أمامها وبدأ يرسمها .

لحسن الحظّ ..كانت الرسمة ناجحة رغم ارتجاف يده .

أخذتها وهي في قمة الفرح ..

قالت : بما أنّك تعمل محاميا... أريد عنوان مكتبك .. يبدو أني سأحتاجك لأمر آخر غير الرسم... اسمي (كوثر ادريس) سأكون عندك بالمكتب قريبا .

أعطاها ورقة كتب بها عنوان مكتبه وغادرت .

في تلك الحارة البائسة وحيث ذلك الكوخ الحقير ، أحدهم يطرق الباب

- أنا بكرو .. زوجتي بعثت لك بطعام .

فتحت الباب ، الطعام ملفوف بطريقة المطاعم ؟

- ما هذا الطعام ؟

- إنه فروج .. فروج ..

- لكنّك قلت أنّ زوجتك هي من بعثته

- بصراحة... بصراحة أنا اشتريته لك، لا تخبري أحد بهذا .

- لا أريده .

- لا تكسري بخاطري .. أعلم أنّ هذا الأحمق يبخل عليك بكل شيء

- من تقصد بالأحمق ؟

- بصراوي .. هو الأحمق... أحمق وغبي ، هو يهمل هذا الجمال .

- كيف تتكلم عن صاحبك هكذا ؟ لا أريد منك شيئا .. اذهب من أمامي .

حاول أن يقترب منها لكنّها نهرته وهددته، دفع بها داخل البيت ودخل وأغلق الباب خلفة ، ركضت باتجاه المطبخ ، ركض خلفها ،تعاركا ، عزيمة وقوة ملأت جسدها فجأة، لم يستطع التغلب عليها ، ابتعد عنها وهو يتنفس بسرعة، بدأ يشتمها ويعيرها أنّها تركت أهلها وباعت شرفها ، عاد يحمل كيسه ، يجر ذيل الخيبة .

في المساء ، جاء بصراوي ، طلب الطعام ، جلبت له البرغل المطبوخ ومع مرقة ربّ البندورة ، غضب وركل الصحن بقدمه ، ردد عليها الكلمات التي يكررها دائما .

عادل في مكتب المحاماة ، أستاذه اليوم في حلب ، أحدهم طرق الباب طرقا خفيفا .

- تفضل .. ادخل

انفتح الباب.. رفع رأسه عن الأوراق التي كان يقرأ بها ، تفاجأ بها ، إنها كوثر إدريس .

- كوثر

- نهم بشحمها ولحمها

- سعيد بزيارتك .

- أواه (جالت بنظرها أرجاء المكتب) ، مكتبك جميل .

- لا... هذا ليس بمكتبي .. ما زلت تحت التدريب .. إنه مكتب أستاذي .

- ربما الكتب لأستاذك .. لكن هذه اللوحات المعلقة لك .

- نعم هي لي .

- أعرف طريقة رسمك .. رأيت بعص لوحاتك في المعرض الذي أقاموه منذ أشهر بالمركز الثقافي .

- نعم شاركت به بأربع لوحات .

- أنا أحبُّ الرسم ، وأهتمُّ بأخباره ، أذهب للمعارض وأغتني بعض الأعمال التشكيلة .

- جيد .. لم أتوقع أن أجد شابة تهتم بهكذا أمور في بلدنا .

- ربما تأتي فرصة أخرى وأحدثك عن الفنّ التشكيلي بها ، جئتك اليوم لأمر أخر ... أريدك أن تطلقني من زوجك .. أنوي رفع دعوة خلع .

- أنت متزوجة !

- نعم...تزوجت من ثلاث سنوات ، أعمل معلمة مدرسة ، لم أتفق مع زوجي منذ الأيام الأولى ، أسباب عديدة سأشرحها لك إذا ما اتفقنا على وفع الدعوة ، علاقتي بزوجتي متوقفة منذ سنتين ولا مجال لبقائي معه .

غادر كمال لقضاء العطلة انتهاء الفصل الأول ، مطر غزير استمر لأيام ، المياه جرت بالوديان و وملأت البِرك والحفر ، سهرة شتوية طويلة أمضاها وهو يستمع لحديث عادل والذي على ما يبدو وقع بحبّ موكلته – صاحبة العينين الواسعتين – احتلت قلبه وعقله ، لقد نجح وكسب لها قضيتها ،دخلت عدّة طلاقها الأن .

ينتهي الشتاء ويأتي الربيع وتستمر رسائل الثلاثاء بين كمال وبدور .

في أخر رسالة له ، كتب عن زيارته للقرية ، لقد ذهب برحلة داخلية للحقول هناك .

قال : كم وددت لو كنت معي يا نور عيني في رحلتي هذه ، الربيع جميل في قرية القادرية ، ذهبت مع معلمي المدرسة هناك ،وذهب معنا عادل أيضا ، لقد أخذنا معنا اللحم وصنعنا المشاوي ، شمس دافئة وسماء زرقاء ، وبحر واسع من الحقول الخضراء ، ربوة هنا مغطاة بشقائق النعمان تجاور واد ملون بورود الأقاح الصفراء منها والبيضاء ، فلاحون يعتنون بحقول الكمون والفول العدس ، راع للأغنام يتسلق وأغنامه جبل القرية الذي فيه تتوزع متباعدة بغير انتظام أشجار السرو والصنوبر .

ما كان ينقص هذا اللوحة البديعة إلا وجود فتاة جميلة مثلك ، تخيلتك تلبسين الأبيض ، تركضين بمرح وغنج ، تختبئين خلف جذع شجرة ، أو تتوارين وراء صخرة ، تلحقين بفراشة هناك ،أو تتفقدين عشّ أحد الطيور .

بدور أنتظر ذلك اليوم الذي ستكونين فيه أحد سكان هذه القرية ، لقد اخترت مكانا لطيفا سنبني به بيتنا ، ربوة تطلّ على سهل فسيح كلّه سيكون لك ينبت فيه عشب كثير .

قال الكثير برسائله وردّت عليه مثل ما قال وأكثر .

ونعود بك أيها القارئ من جبال القرية وسهولها إلى ذلك الكوخ البائس ، من ثنايا بؤسه تنطلق صرخة جنين لتوه خرج لنور هذه الدنيا ،بعد عام من هروبها تلد حميدة مولودها الأول .

كان بصراوي بورشته ، شعرت بآلام المخاض تأكل جسدها ، لم تجد خيارا غير مناداتها لجارة لها والتي أحضرت معها امرأة أخرى ، احتجنّ لداية الحارة ليتمّ الأمر .

من الجيد أن الجارات لم يتركنّها ، قُمنّ بما يجب القيام به في مثل هذه الحالة .

عاد بصراوي مساء ليجد مصطفى بانتظاره ، لقد سماه مصطفى ، منذ اليوم صار اسم حميدة (أم مصطفى)

لأنه وُلِد ذكرا وجد بعض الاهتمام من هذا الأب الناقم ، جلب بعض الطعام ، وأظهر سلوكا أبويا طيبا نوعا ما ، خفف هذا من قسوة الهموم التي كانت تعبث بصدر حميدة لبعض الوقت ، سرعان ما عاد لاحقا لعادته القديمة ، الطفل مصطفى وحده من يستحق برأيه المعاملة الطيبة أما هي فلا .

زارت بدور صديقة لها تدرس بالمعهد ، القصد من زيارتها كان توديع كمال ، العام الدراسي في نهايته .

جلوس كمال وبدور أثارَ فضول طلاب وطالبات المعهد .

قالت إحداهنّ : الأن عرفنا سرّ سلوكه الغير مبال بالطلبات ، ... إذا هو مرتبط .

- ذوقه رفيع .. فتاته في قمة الجمال والروعة ، إنّه يُحسد عليها .

- هي من عشيرته ، تدرس الأدب العربي بجامعة حلب ، سنوات وهو مرتبط بها ، سكن بالحارة من أجلها .

- الأن عرفت الفتاة التي وصفها بقصيدته أثناء الاحتفال ، كان وصفه دقيقا .

ودّع كمال الحارة (ن) ، لقد تخرج من المعهد ، أخبر بدور أنّه سيلتحق بالخدمة العسكرية ، وما أن ينتهي منها سيأتي لخطبتها ، سيتمُّ التواصل عن طريق أم يوسف ، وسياتي إلى زيارتها كلّ ما ذهبت لحلب لأجل الامتحانات الجامعية .

حضر احتفال عرس عادل وعروسه (كوثر ادريس)،

حفلٌ صغيرٌ داخلي ، جمع الأهل والأحبة ، خلا من المطربين والراقصات .

عروسٌ جميلةٌ كسبتها قرية القادرية ، فرح بها عادل وأهله .

مصطفى يخطو خطواته الألى ، لا يعرف ما يجري حوله ، عيناه الدامعتان تنظران باستغراب للنسوة التي تجمعنا حول والدته والتي تصرخ متألمة ، أنجبت ولدها الثاني ، ولدت طفلة ، سماها بصراوي (عائشة) ، همٌّ جديد جاءت به الاقدار ووضعته على كتف حميدة ، عبءٌ أخر فوق الأعباء التي اختارت حميدة لتكون لها مطية .

(تدبري أمرك) هكذا كان يقول لها كلما سألته حاجة أو طلبت منه طلبا .

وتدبرت أمرها فعلا ، استمرت بجلب بعض الأشياء من الورش والمعامل، أجر زهيد وبسيط ، عالجت به الضروري والأضر .

تخلى أو كاد بصراوي عن مهمة الإنفاق ، لقد جلب زوجته الأولى إلى حلب ، ووجه كل ما يكسبه لصالحها وأولادها .

كل هذا لم يكن مرضيا للضرّة الغاضبة ، كانت وما زالت تبحث عن وسيلة للتخلص من هذه التي فرّت من أهلها لأجل بصراوي ، من غير المسموح بقاء هذه الضرّة الجميلة ، جمالها وإن كان غير ذي فاعلية إلى الأن ،لكنه سلاح نائم في غمده ، قد تتغير الظروف وتتحسن الأحوال فينمو هذا الجمال من جديد ، فينجذب بصراوي إليه مجددا . لقد ولدت له الأولاد وهي حامل بالثالث .

هكذا كانت تحدث نفسها وهي تضع الخطة للتخلص من ضرّتها .

لم تحتج لعناء كبير بالتفكير ، الأمر بسيط ، عنوان بيت الضرّة المزعجة يصل إلى دحام وهو سيتصرف ، هذا ما جرى فعلا .

<u>الجزء الحادي عشر</u>

أنهى كمال خدمة العلم ، تمّ تعينه معلم صفٍّ في مدرسة قريته ، لم يتأخر عن وعده لبدور ، بادر على الفور للتقدم وطلب يدها من أهلها .

فرحت الحارة (ن) بعد حزن دام لسنوات ، الكثير من أهل الحارة ذهبوا مع زفة العروس لقرية القادرية ، فرصة تجمع سكان الحارة (ن) في المدينة مع أقربائهم في القرية .

نفذ كمال رغبة شباب القرية ، لم يعجبهم العرس الذي يحييه المطربون ، اقترحوا عليه جلب (العبدال) ليقرعوا لهم الطبل ويعزفوا لهم على المزمار .

دبك الجميع ، كمال شاب محبوب وله احترام كبير عند أهل قريته وابناء عشيرة (الموالحة) .

دام العرس ثلاثة أيام متتالية ، أيام كانت ميزة في ذاكرة أهل قرية القادرية والحارة (ن) .

قال كمال لبدور : كُنتِ حلم والأن أنتِ واقع ماثل أمامي ، لا أعرف كيف جرى الأمر ، صدفة أم هو القدر .. أم... ، لا أعرف لما كلّ هذا العطاء الرباني .. أنت أجمل وأعظم عطاء... أشكرك يا رب .

- أنت رائع يا كمال وأنا أحبك ،أنا محظوظة أن تكون لي زوجا وحبيبا ، أنا أيضا أسأل نفسي نفس سؤالك ، هل أنا أستحق كل هذا العطاء .
- أنت تستحقين كل شيء طيب يا بدور .

ما كان الفرح سيستمر في الحارة (ن) ، ها هو ربيعها يودع أيامه الأخيرة .

دحام يبعث بطلب شقيقة أسعد ، عليك بالحضور فورا .

- بعث بطلبي يا دحام

- نعم .. وقعت تلك الحقيرة .

- من تقصد ؟

- حميدة... عرفت عنوانها .. جاء أحدهم واخبرني به .

- ماذا سنفعل الأن

- سنذهب لأبي جمعة ونشاور بالأمر .

ذهبا لأبي جمعة والذي أخذهم بدوره عند الشيخ حازم .

أثمر تشارهم على خطة .

باب بيت حميدة يُطرق

- من الطارق ؟

- أنا... أختك هناء .

فتحت بسرعة الباب ، حضنتها وقبلتها وبكت على صدرها .

كيف جئت يا أُخية ، من أرشدك لعنواني ، ما الذي جرى ، ما أخبار أهلي ؟.

- على رسلك أختاه ، سأكلمك بكل شيء ... لكن قبل أن أكلّمك ، ما هذا الذي أنت به ، هل أنت مريضة ؟ .. لقد تغيرت كثيرا .. إنك نحيلة ووجهك مُصفر كئيب ، وعيناك غائرات ، من يراك في الخارج لن يعرفك ، رباه ..تلبسين نفس الثوب الذي خرجتي به ، رباه...ماذا جرى ؟.

جاوبتها حميدة بالدموع التي لا تملك غيرها .

قالت هناء : لا أعرف كيف توصلوا لعنوان منزلك ، بعثوا بي لعندك ليقولوا لك ، ما فات مات ويجب أن تعود المياه لمجاريها .

- لا أثق بهم يا أخوية ، وما زال في صدري خوف منهم

- لا أعرف ماذا أقول لك... لكن كلامهم كان طيبا... هم لا يريدون منك شيئا الأن ... المطلوب فقط أن تكتمي خبر قدومي لك .. لا يريدون أن يعرف بصراوي بأنهم تواصلوا معك .

- طلبهم هذا يعزز شكوكي بالأمر .

- لديك طفلين صغيرين وأنت حامل بثالث .. لماذا هكذا... ما كان عليك أن تكثري من الأولاد وأنت بهذه الظروف .

- الأمر ليس بيدي .. منذ أن أتيت إلى هنا وأنا لم أزر أيّ طبيب .. وبصراوي لا يكف عن معاشرتي ولا يكترث لحالي وكل ما يهمه اشباع غريزته .

بعد شهر كررت هناء الزيارة ،جلبت معها بعض الفواكه واللحم ، قالت : لقد بعثوا لك بهذا بعد أن سمعوا بحالتك البائسة .

- سيسأل بصراوي عن هذا ، وسيكتشف أمر مجيئك .
- تدبري إخفاء هذه الأشياء ،لن تعدمي وسيلة . اطمأنت حميدة ، تسلل بعض الأمل لقلبها الذي كاد اليأس أن يقتله .

بعد أيام جاءها خالد ، كان وحده هذه المرة ، أخبرها بضرورة التحرك سريعا ، والدتها تنتظرها على فراش الموت ولا سبيل للتأخير .

ألحّ عليها بضرورة التحرك ، استجابت لتلهجه وخضعت لاستعجاله فمشت معه

الفصل الثاني عشر

في يوم صيفي غائض ، الشمس في أشدّ غضبها على الأرض ، أرست كل نيرانها ، السراب يسير كنهر على قمم الجبال البعيدة ، الطيور تختبأ لاهثة تحت ظلال أوراق الأشجار ، المدينة كانت رمادية كبقايا حطب نالته النار ولم تُبقي منه غير الرماد ، القليل من الناس بالشوارع ، مع أذان صلاة الظهر وصلت حميدة للحارة (ن)، نزلت بسرعة ودخلت بيت أهلها ، لم ينتبه أحد من الجيران لوجودها .

وجدت الأم والشقيقات ، نظرنّ جميعا لأطمارها التي كانت ترتديها ، هي نفس الملابس التي خرجت منها ، حضنت الجميع ، بكت وبكوا معها ، انتبهت ، أمها تجلس بالغرفة ، لا يبدو عليها المرض .

جلست تحدثها عن رحلتها ، عن معاناتها ، الأم تسأل وهي تجاوب . فجأة باب البيت يدفع بقوة .لقد جاءوا .

- هيا يا جمعة أخرج جميع النساء إلى الفناء .

- جميعكنّ إلى خارج الغرفة ، هيا ، لا نريد تأخيرا

رمت حميدة ننفسها خلف أمها ، دخل دحام ومعه آخرون ، سحب دحام الأم ورماها بالفناء .

قال دحام : حان موعد موتك أيتها العاهرة .

- لست بعاهرة ..تزوجت على سنة الله ورسوله وعند ورقة التسجيل ، حميت عرضي وشرفي ، أنت وأم نادر العاهران ، نعم يجب أن يعلم الجميع بكما .

كلماتها تلك سارعت بقتلها، تناولها بخنجره واشترك آخرون معه .

نظرت الأم خلفها ، كان آخر ما رأيته من حميدة ، يدان تضربان الزجاج ودم أحمر يسيل عليه .

- زغردنْ.. هيا... زغردنْ يا نساء البو ملاح... غسلّنا اليوم عارنا . (هكذا قال دحام وهو يرفع خنجرا ودمها يقطر منه)

زغردت شقيقاتها ، بينما كانت روحها تصعد للسماء .

خرجوا جميعا وتركوا البيت ، انتبه أهل الحارة للزغاريد .

- قتلوا حميدة .. قتلوا حميدة ..هكذا نادى الأطفال .

قال أحدهم... لا أحد يقترب من البيت ، أغلقوا الباب وسارعوا بإخطار الشرطة .

الطفلان يصرخان بالغرفة المغلقة ولا أحد يسمعها .

بعد ساعتين جاءت الشرطة ، فتحوا باب الغرفة ، كانت هي ممددة مضرجة بدمها ، ابنتها (عائشة)أخرجت ثديها ورضعت منه ونامت عليه ، (مصطفى) حضنها هو الآخر ونام على زندها .

نقلوها لتدفن بقرية القادرية ، دُفِنت ليلا ، دفنها وحش ليلي تم استئجاره لهذه المهمة ،جردها من ثيابها وأشبع غريزته بلحمها ، ريح شديدة أثارت الزوابع ، لم تسمح للنجوم رؤية آخر فصول الجريمة ، دُفنَت بقبر لا شاهد له .

تسلم أهل بصراوي الطفلين ، ليعشا برعاية زوجته الأولى وعليك أن تتصور أيها القارئ العزيز كيف ستكون حياتهما .

ينتشر الخبر كالنار في الهشيم ، أبناء عشيرة (الموالحة) منقسمون بشأن ما جرى .

- لم يقصر دحام... يستحق التحية على ما فعل .
- بل يستحق رصاصة بين عينيه ، إنّه مجرم زنديق لعنه الله .
- دحام لم يقتل ...يقولون أنّ شقيقها هو من قتلها .
- أيّ كان القاتل .. ما فعله عمل شنيع مدان .
- هي تستحق الذي جرى لها ... تهرب مع شاب غريب وتعود وقد أنجبت منه .. نعم هي تستحق .
- حرام عليكم أن تقولوا هذا عنها .. أنتم مسلمون وما تقولوه مخالف لدينكم وشرعكم .
- الزانية... يجب أن تموت... هكذا يقول ديننا .
- لا تتكلم على شيء لا معرفة لك به وخصوصا الدين... ناقصنا أن تفتي لنا .

- لا... أنا لا أفتي .. ولكن حكم الزانية معروف للكلّ .
- لا... أنتم لا تعرفون شيئا ، والذي تتكلمون عنه وتتبعونه هو عاداتكم الغبية والتي جاءت نتيجة التخلف الذي تعيشونه .

شيخ عشيرة الموالحة والمساعد أول أبو جمعة ومختار قرية الزينة يجتمعون مع مدير المنطقة ، بينما هم مجتمعون ، كان جمعة ابن المساعد أول يسلم لزوجة مدير المنطقة ظرفا فيه مبلغا ماليا إضافة لخروف مذبوح ومقطع .

فرحت أم حيدر بالهدية ، اتصلت بزوجها وأخبرته بوصول الهدية ، ابتسم المدير وانفرجت أساريره وتحدث بود مع ضيوفه .

- إنها جريمة شرف يا سيادة العقيد ، لم يتحمل شقيقها خالد رؤيتها وهي التي أساءت لشرف أهلها وعشيرتها ،فقام بقتلها .
- جيد .. سمعت أنّه لم يتجاوز السادسة عشر من عمره ، إنه قاصر .
- نعم هذا ما أردت قوله يا أبا حيدر .
- سأوصي المحققين به ، سيكون حكمه مخففا.

دخل كمال مكتب عادل .

- الشيخ حازم ومعه المختار وأبو جمعة صعدوا درج السراي الحكومة ، رأيتهم يدخلون مكتب مدير المنطقة ، لقد سلموا خالدا على أنّه القاتل .
- إذا أنت لا تعتقد أنّ خالدا هو من قتل ؟.
- لا... أنا أعرف خالدا .. ما زال يافعا ولا أظنه يقوى على هذا الفعل .. كما أنّه يحب شقيقاته كثيرا .
- لكنّه رافق عمه دحام بالفترة الأخيرة وقد أصابه التغيير، سبق وأشرت أنت لهذه النقطة يا كمال .
- نعم... هو تغير فعلا .. لكن ليس لدرجة أن يكون قاتلا .

أضاف كمال : عائلة أبي محمود تدمّرت أمام أعيننا جميعا... يجب أن نفعل شيئا لأجلهم يا عادل .

- للأسف... ليس بيدنا ما نقوم به .
- ما رأيك أن تقوم بدعوة هؤلاء الذين ذهبوا لمكتب مدير المنطقة ، أدعوهم لمكاتبك هذا لنتحدث معهم بهذا الشأن .
- قم معي... سنقف أمام السراي وننتظر خروجهم ، ندعي أننا التقينا بهم مصادفة ، ثم نأتي بهم إلى هنا .

في المكتب ،دار الحديث عن القضية التي تشغلهم جميعا.

قال الشيخ حازم: جيد أن مدير المنطقة تفهم طلبنا ، تسير الامور بطريقها الصحيح .

قال المختار : الحمد لله انتهينا من هذه القصّة ، كانت مزعجة ومعيبة بحق (البو ملاح) جميعا .

قال أبو جمعة : دحام لم يخيب أملنا به ، لقد رفع رأسنا .

قال عادل : أستغرب كلامك هذا ، أنتم وجهاؤنا وقدوتنا ، لكن اسمحوا لي أن أقول لكم : إنّ ما جرى هو جريمة نكراء ، على الجميع إدانتها والتبريء من فاعلها .

قال كمال : أوافق عادل على ما قاله ، دحام تسبب بانتكاسة كبيرة لبيت أخية ، ورغبت وعادل أن نتحدث معكم بشأن هذه الأسرة التي تعاني جراء تصرفات دحام هذا الذي تمتدحونه .

قال الشيخ حازم : ما كنّا نتوقع أنّ شبابنا الذين نفخر بهم ، يتخذون مثل هذا الموقف ، حقا إنّ المدارس تفسد العقول أحيانا، إننا عشيرة تفخر بشرفها ولن نقبل لأحد أن يتمادى على ما نفخر ونعتز ،أيُّ فتاة تفعل مثل ما فعلت تلك السافلة ستلقى مصيرا كمصيرها .

قال عادل : هذه الفتاة تزوجت زواجا شرعيا ، ولديها وثيقة تثبت هذا ، هي ليست زانية ،

قال كمال : استنادا على أيّ قاعدة وبموجب أيّ شرع تمّ ما تم .

قال الشيخ حازم : إنها قاعدة العرف ، إنّه حكم العشيرة ، أم أنّ هذا الشرع لا يعجبك أيها المعلم المثقف ؟، لا يهمنا ما جاءت به من وثائق ولا يعنينا هذا ، كلنا يعلم أنها خرجت دون علم أهلها وهذا كافي لتنال ما نالت .

قال كمال : يا شيخ ، العشيرة على الرأس فوق العين ، لكن لم تفكروا بظروف تلك الفتاة ولم يكترث أحد بالدوافع التي دفعت بها .

تحدثوا أكثر منها وذكروا نفاطا عدّة وانتهي اللقاء باختلاف كبير وصل لدرجة التخاصم ، خلاف بين ثقافتين وفكرين بعيدين كلّ البعد عن بعضها .

أيها القارئ الكريم ، هكذا انتهت قصّة حميدة ، عانت ظلما كبيرا من المحيطين بها ، أغلقوا عليها المنافذ والأبواب إلا نافذة واحدة ، نافذة نقلتها من الرمد إلى العمى ، ومن القيد إلى الحاجة والعوز والرفض والنبذ ومن ثمّ إلى القتل .

لابد أنك تسأل تتساءل عن مصير هؤلاء الذين ظلموها ومن ثم قتلوها .

بعد أيام من جريمته ، كان دحام بفراش أم نادر .

- لم تقصر بقتلك هذه الساقطة ، لا يمكن أن أتخيل نفسي وأنا جالس أمامها بعد أن علمت بالعلاقة التي بين وبينك .
- نعم وجودها بهذه الحياة مزعج لنا وللجميع ، تصوري انها صرخت وبدأت تتكلم عني وعنك ، لم أمهلي حتى تكمل كلامها ، أجهزت عليها سريعا .
- تروق لي شجاعتك ، أنا مفتون بقوتك ، اقترب مني أيها الثور الهائج ، بقرتك عطشى لمائك .

وبعد سنوات عن تلك الحادثة المروعة ،مع شروق شمس يوم عيد الأضحى

كان الأستاذ كمال مدير مدرسة القادرية وزوجته بدور معلمة اللغة العربية وطفليها الصغيرين ، يقفون جميعا بالقرب من أحد القبور ، يقرأون سورة الفاتحة .

تميز ذلك القبر عن غيره من القبور ،لا نصب على رأسه ولا شاهد يدل على ساكنه ، رغب صانعه بإخفائه ، يستعجل محوه من ذاكرة الزمن ، أراد له أن يكون قبرا داثرا وكأنه لا يعلم أنّ (خير القبور هي الداثرة) .

النهاية